نهج البلاغة بين عصرين
مقاربات ومقارنات أسلوبية

د٠ راشد بن مبارك الرشود(*)

مقدمة:

يعد نهج البلاغة المنسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الكتب المهمة التي أثارت جدلاً واسعًا؛ فمنذ أن وجد هذا الكتاب على يد الشريف الرضي لم يسلم في عصر من العصور من النقد والتشكيك في صحة نسبته إلى أمير المؤمنين، سواءً من الناحية العقدية أو الفكرية أو غيرها من النواحي الأخرى. بينما انبرت فئة مدافعة عن نهج البلاغة تدحض ما أثير حوله من شبهات محاولة إثبات أن نهج البلاغة نص مقدس يقارب في قدسيته النص القرآني أو يكاد، بل إن الشطط تجاوز حده مع بعضهم فراح ينعته بما نعت به القرآن الكريم. يقول ابن أبي الحديد في شرحه: "وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء، وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين"(١)(٢).

(*) الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب – جامعة الملك سعود .

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٥/١.

(٢) ومن أوائل العلماء الذين شككوا في نسبة النهج الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: ١٦١/٢، وابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣١٣/٣ ، وابن العماد في شذرات الذهب: ١٦٩/٥، و ابن تيمية، منهاج السنة: ٥٥/٨، والذهبي، ميزان الاعتدال: ١٢٤/٣، والعسقلاني، ابن حجر: لسان الميزان: ٢٢٣/٤ وغيرهم.
أمّا المدافعون عن نهج البلاغة ونسبته لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمنهم الكثير، ولعل أبرزهم ابن أبي الحديد، صاحب شرح النهج، الذي يتضح =

وعلى أية حال، فهذه الدراسة تحاول أن تقف على النهج من زاوية الدراسة الأسلوبية التي تحاكم النص من حيث كونه نصًّا لا غير، لا تتحامل عليه مذهبياً، ولا تتعصب له من قبيل النزعة المذهبية أيضاً، وإنما أداتها هي المحاكمة النقدية الموضوعية من الناحية الأسلوبية. ومن خلال الأسلوبية[1] – بوصفها نظرية نقدية تشتغل على محاكمة النص وتحديد سماته– سيكون تناول هذه الدراسة لنص نهج البلاغة.

والأسلوبية هي أحد المناهج النقدية الحديثة التي تعنى بالنص، والتوغل في تركيبه، وتحليل ظواهره اللغوية والبلاغية، والكشف عن جمالياته، من حيث الألفاظ والمفردات، ومن حيث التراكيب والجمل، ومن حيث الأساليب البيانية والبلاغية.

وقد تكاثرت تعريفات الأسلوبية، وتعددت مناهجها ووسائلها، وفي بحث كهذا لا نستطيع الإلمام بهذه التعريفات أو الإحاطة بها؛ ولذا فإننا سنأخذ من الأسلوبية ما يقربنا من فهم موضوع هذا البحث، ونستطيع أن نقارن به بين الخصائص الأسلوبية لعصرين متباعدين هما عصر صدر الإسلام والقرن

= من كلامه أن قضية الشكّ في النهج قديمة قدم الشارح الذي وظف شرحه للدفاع وإثبات صحة النسب، يقول ابن أبي الحديد في شرحه: " إن كثيرًا من أرباب الهوى يقولون إن كثيرًا من نهج البلاغة كلام محدث، صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره، وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم؛ فضلوا عن النهج الواضح، وركبوا بنيّات الطريق ضلالا، مع قلة معرفة بأساليب الكلام" (ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٥٤٦/٢).

(١) انظر عن الأسلوبية: الشايب، أحمد، الأسلوب. والمسدي، عبد السلام، الأسلوب والأسلوبية نحو بديل ألسني في نقد الأدب. ومصلوح، سعد، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية. وعياد، شكري، علم الأسلوب، وأبو العدوس، يوسف، الأسلوبية. الرؤية والتطبيق. ومحسب، محي الدين، الأسلوبيات الأدبية، وغيرها.

الرابع الهجري، ومن ثم تبين الخصائص الأسلوبية لكتاب نهج البلاغة الذي يعنينا في هذا البحث بالدرجة الأولى. ولذا جاء اختيار الأسلوبية المقارنة منهج بحث لهذه الدراسة؛ والأسلوبية المقارنة هي منهج "يدرس أساليب الكلام في مستوى معين من مستويات اللغة الواحدة... ويعمد إلى المقارنة بين الأساليب لتبين خصائصها عن طريق مقابلتها بغيرها"(١).

ولكي يتسنى للباحث فهم الخصائص الأسلوبية لنهج البلاغة فلابد من معرفة الخصائص الأسلوبية للعصر الذي ظهر فيه النهج ونشأ، وهو القرن الرابع الهجري، وقبل ذلك معرفة الخصائص الأسلوبية لعصر من نسب إليه النهج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو عصر صدر الإسلام، ومن ثمّ يمكن مساءلة النَصّ في توافقه أو تناقضه بين سمات هذين العصرين الفنية، ومقارنة بعضها ببعض، ومن ثمّ محاولة تحديد هويته الحقيقية.

وعليه فقد جاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

*__المقدمة:__ وتعرض خطة البحث ومنهجه.

*__المبحث الأول:__ ويدرس الخصائص الأسلوبية للخطابة في عصر صدر الإسلام.

*__المبحث الثاني:__ ويناقش الخصائص الأسلوبية للنثر الفني في القرن الرابع الهجري.

*__المبحث الثالث:__ وتناول الخصائص الأسلوبية لكتاب نهج البلاغة.

*__الخاتمة__

---

(١) الطرابلسي، معارضات شوقي بمنهجية الأسلوبية المقارنة، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الأول، أكتوبر/نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٢م: ص٨٧. وتختلف هذه المنهجية عن الأسلوبية المقارنة التي بدأها شارل بالي، وعني بها المختصون في اللغات والترجمة بعد ذلك كون الأخيرة تقارن بين لغتين مختلفتين أو أكثر.(انظر أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق: ص ٧٩).

المبحث الأول

الخصائص الأسلوبية للخطابة في عصر صدر الإسلام

جاء الإسلام فأيقظ العرب، وأثار ما سكن من نشاطهم، وحياتهم، وحبب إليهم العلم والأدب، والنثر والشعر، فانطلقت ألسنتهم، وبرز إبداعهم، فزاد فيهم الكتاب والشعراء والخطباء، وكان من دواعي البلاغة عندهم حاجتهم إلى فهم الكتاب العزيز وتفهيمه، وتبليغ الرسالة، ومقارعة الحجة بالحجة، وتسيير أحوال المسلمين الدينية والدنيوية.

وتعد الخطابة والكتابة أول مظهر من مظاهر الدعوة إلى الله فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من الخطب الكثير، وبالأخص خطبته المعروفة؛ خطبة الوداع، ثم خطب الخلفاء رضي الله عنهم بعده، وخطب الولاة والقادة والفاتحون في أرجاء المناطق المفتوحة في العراق والشام ومصر وغيرها.

ثم شجرت الفتن بعد ذلك، فتن التحزب والاختلاف والانقسام التي كانت من أهم بواعث شيوع الخطابة في هذه الأمة.

ولعل أبرز هذه النزاعات والإشكاليات التي أنتجت خطبًا ونثرًا فنيًّا له خصائصه، هو الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بعد فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه؛ فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة، واشتدت الرغبة في إظهار أحقية كل فريق بالخلافة، مدعمًا ذلك بالحجج الدينية والعقلية[1]؛ فخلّف ذلك تراثًا أدبيًّا، ونثرًا فنيًّا يعكس الحياة الجديدة التي ازدهرت فيها الثقافة العقلية والجدلية، وتطورت فيها المجالات الفكرية والمعرفية التي لم يعهدها العرب في جاهليتهم؛ حيث كانوا

(١) النص، الخطابة العربية في عصرها الذهبي: ص ٤٦.

يعيشون حياة بدائية أولية لا تتطلب نثرًا فنيًّا، بقدر ما تتطلب الشعر؛ لغة العاطفة والخيال(١).

إن الإسلام بمجيئه شكل نقلة أسلوبية كبيرة في مجال النثر الفني فغير من الوجهة الفكرية والدلالية واللفظية، وكذلك التركيبية، والتفت الأمة حول النصّ الرئيس (القرآن الكريم)، تحاكي أساليبه وتلتزم منهجه وتستمد منه الدلالات والتراكيب، ولذا فقد "أثر هذا الكتاب العظيم آثارًا بعيدة في اللغة العربية، فقد حول أدبها من قصائد في الغزل والحماسة، والأخذ بالثأر والفخر ووصف الإبل، والخيل والسيوف والرماح، ومن حكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام، إلى أدب عالمي يخوض في مشاكل الحياة والجماعة، وينظم أمورها الدينية والدنيوية. فارتقى الأدب العربي رقيًا لم يكن يحلم به العرب، واتسعت آفاقه"(٢).

وتعد الخطابة النمط الأكثر انتشارًا في النثر الفني في ذلك الوقت؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة مكتوبة في صلاة الجمعة والعيدين. "وبذلك عرف العرب ضرباً منظماً من الخطابة الدينية لم يكونوا يعرفونه في الجاهلية، إذ كانت خطابتهم اجتماعية، وكانت تدور غالباً على المنافرات والمفاخرات، وقد دعا الإسلام إلى نبذ التفاخر، والتكاثر بالأحساب والأنساب، ومن ثم اختفى من حياتهم هذا اللون من الخطابة"(٣) إلى حين.

وقد اتسم النثر الفني في ذلك العصر بالكثير من الخصائص الأسلوبية التي ميزته، وجعلت له طابعًا خاصًّا يختلف عما ساد قبله، وما جاء بعده؛ فقد تغيرت الحياة العربية من جاهليتها إلى الإسلام، وأصبح هناك مادة فكرية ودعوية

(١) انظر: حسين، طه في كتابيه: من تاريخ الأدب العربي: ٢/٢١٤، ومن حديث الشعر والنثر: ص ٢٢-٢٤، ومبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري: ١/٧٣.

(٢) ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٤٦.

(٣) السابق: ص ٤٦.

أخرى يفسح لها المجال لتتقدم في الصدارة عبر وعاء الخطابة الدينية والسياسية؛ لذلك وجدنا تقدمًا كبيرًا للخطبة كما أسلفنا.

لعل من أهم خصائص النثر الفني في هذا العصر، البدء بحمد الله عز وجل والثناء عليه ثناءً بليغًا لا تكلف فيه ولا تأنق. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة، وخطبه بالحمد والثناء.

ومن خصائص ذلك العصر الفنية الإيجاز في الخطب والكتب التي ترسل إلى الولاة وغيرهم. فقد كانت خطب النبي صلى الله عليه وسلم قصيرة موجزة، تهدف إلى الإبلاغ والتوجيه، وتحمل الموعظة الحسنة، وتستخلص العبرة، وتأمر وتزجر بالتي هي أحسن. وقد كانت أطول خطبه خطبة الوداع، ومع ذلك فهي قصيرة إذا ما قورنت ببعض الخطب المعروفة في عصور لاحقة.

أما كتبه صلى الله عليه وسلم فتتميز بالإيجاز والاختصار لفصاحته صلى الله عليه وسلم، ولإبلاغه ما يريد في أقصر عبارة، وأدق إشارة، ولعنا نجد أمثلة لذلك في كتبه إلى الملوك قيصر وكسرى والمقوقس وغيرهم(١).

وقد كان هذا الإيجاز هو ديدن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في خطبهم من بعده صلى الله عليه وسلم، وذلك لعنايتهم بالدعوة إلى الله، والحث على الطاعة، والالتزام بالدين القويم في ظل الفتن التي أصابت المجتمع المسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية، والاهتمام بأمر إرساء قواعد الدولة الجديدة التي قُدّر لها أن تمتد، وأن تتوسع خارج نطاق الجزيرة العربية. فكان الإيجاز هو سمة هذا العصر(٢).

---

(١) انظر حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.

(٢) خطب رجل أمام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فأطال، فلما شعر بذلك أحب أن يعرف رأي الخليفة، ولعله رأى فيه تشاغلا عن السماع إليه، فقال: (أأسكت يا أمير المؤمنين؟، فقال: وهل تكلمت؟!) (ابن قتيبة، عيون الأخبار: ١٧٤/٢)، وانظر عن الإيجاز في ذلك العصر: الرشود، أدب الوفادة على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، رسالة ماجستير: ص ٢٥٧-٢٥٨.

ثم نرى سمة أسلوبية أخرى انتشرت في النثر الفني في ذلك العصر وهي سهولة اللفظ، والبعد عن الغرابة والتعقيد، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم في خطابته -كما كان في حديثه- يسترسل استرسالًا خاليًا من التعقيد والتصنع، و لا تجد في ألفاظه شيئًا من وحشي الكلام وغريبه، لكنها مع ذلك كانت قمة في البلاغة والجزالة لا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها، فكان حديثه صلى الله عليه وسلم في خطبه ومجالسه يأسر القلوب، ويستميل الأفئدة؛ ويهذب الأخلاق، ويراعي المشاعر، تجد ذلك في مثل ما رواه أَبو نَجِيحٍ العِرْباضُ بنُ سَارِيةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ قالَ: وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوما بعد صلاة الغداة مَوْعِظَةً بليغة ذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، فقال رجل: إنّ هذه مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قالَ: "أُوصيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعَلَيْه بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"(١). رواهُ التِّرمِذِيُّ وغيره، وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. وأحاديثه صلى الله عليه وسلم في هذه المعاني كثيرة كلها تدل على بيانه الرائع، وفصاحته التي لا تعلوها فصاحة.

كما أن الخلفاء من بعده رضي الله عنهم انتهجوا النهج ذاتـــه؛ فـــلا نجـــد الغريب في ألفاظهم، ولا التعقيد في أسلوبهم، ولا الرفاهية الأسلوبية التي تنحو بصاحبها إلى الإغراق في التكلف، وإعمال الصنعة في اختيار الألفاظ وتكـــوين الأسلوب، وتلك سمة جاءت لاحقة على فن ذلك العصر، ولها أسبابها ودواعيها التي سيأتي ذكرها في موضوعها.

وإذا كان هناك تشديد على جزالة الألفاظ وسهولتها ورونقهـــا، فـــي ذلـــك العصر؛ إذ لا تصنع ولا تكلف، فإن ذلك يمكن ردّه من زاوية أخرى إلـــى أن

(١) الترمذي، الجامع الكبير: ٤٠٨/٤ ورقم الحديث ٢٦٧٦.

هذا العصر لم تفسده الفلسفة وعلومها، وبالتالي فإن هناك مصطلحات فلسفية ظهرت فيما بعد لم تكن لها أية علاقة من قريب أو بعيد بأدب ذلك العصر.

وليس في خطب الرسول صلى الله عليه وسلم سجع متكلف، بل كان – صلى الله عليه وسلم – ينهى عنه لاستخدام الكهان في الجاهلية لهذا النوع من السجع، و"لقرب عهدهم – أي الصحابة– بالجاهلية، ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم"(١)، وقد وصف صلى الله عليه وسلم أحد المتحدثين بهذا النوع من السجع بأنه من إخوان الكهان(٢) ولذلك صد عنه، وتبعه خلفاؤه من بعده.

أما السجع غير المتكلف فقد كانت تخرج من رسول الله صلى عليه وسلم سجعات غير متكلفة تنساب إلى أسماع أصحابه كالماء الزلال، كقول صلى الله عليه وسلم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ" رواه الترمذي وغيره، وقال: هذا حديث صحيح(٣).

أما الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، فقد ساروا على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم في خطابتهم، فكانت خطبهم خالية من السجع المتكلف، ومثالاً يحتذى في البلاغة والبيان والفصاحة، وكانت مادة خطبهم مستمدة من كلام الله

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ٢٨٩/١.

(٢) روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهي حامل فقتلت ولدها الذي في بطنها فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى أن دية ما في بطنها غرة عبد أو أمة فقال ولي المرأة التي غرمت كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهان" انظر، البخاري: صحيح البخاري: ١٣٥/٧، باب الكهانة، رقم ٥٧٥٨. وانظر عن السجع في تلك الفترة: الرشود، أدب الوفادة على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، رسالة ماجستير: ص ٢٨٢-٢٨٦.

(٣) الترمذي، الجامع الكبير: ٢٦٤/٤، ورقم الحديث ٢٤٨٥.

عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. كما ظلت الخطباء تسجع بين يدي الخلفاء سجعًا غير متكلف على نحو ما يلاحظ الجاحظ حيث يقول: "كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة"(١).

وإليك مثالًا واحدًا من خطب الخلفاء الراشدين، حيث يقول أبو بكر – رضي الله عنه – في خطبة له: "أما بعد، أيها الناس: إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيها دون الصدق مِن الحديث خير، مَن يكذب يَفجر، ومَن يفجر يهلك، ...فاتقوا الله – عباد الله – وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم، صغيرها وكبيرها، إلا ما غفر الله، إنه غفور رحيم، فأنفسَكم أنفسَكم والمستعان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد أفضل ما صلَّيتَ على أحد مِن خلقك، وزكِّنا بالصلاة عليه، وألحقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، اللهم أعنَّا على طاعتك، وانصرنا على عدوك"(٢).

ولا يجهل أحد مكانة أبي بكر الصديق في الجاهلية؛ من حيث سموُّ بلاغته وفصاحة معانيه، وقد أخذت هذه البلاغة مكانتها في كلامه تأثُّرًا بهدي الإسلام، من خلال الهدي القرآني والكلام النبوي الشريف؛ ولذلك لا نجد في ألفاظ خطبته هذه ما يُخلّ بالمعاني مِن لفظ وحشي غريب أو ذي تنافر، أو بعْدٍ عن حد الفصاحة، وإنما هي ألفاظ سهلة سلسة مُنتقاة. ولا نجد في المعاني التي عبر عنها معنى مُستغلقًا أو شططًا فلسفيًّا أو اصطلاحيًّا، ولا نجد أثرًا للصنعة المتكلَّفة؛ فقد عريت أجزاء هذه الخطبة مِن زخرف القول، حتى بانَ في معانيها

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ١/٢٩٠.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٤/١٢٨-١٢٩.

تلاحق الفقرات من غير عناء؛ لأنها من قبيل الوعظ والإرشاد في طابع إسلامي رصينِ النسج، محكَم العبارة، يتخلله درر من آيات الله البينات؛ لإقامة الحُجَّة والبرهان على المعاني التي سيقت في ثنايا النص(١).

ولذلك جاء أسلوب العرض متماسكًا متلاحم الأقطار، لم يضعفه التفكك وتخلخل الفكرة، جاء مرتبًا غير مضطرب، واضحًا بعيدًا عن اللبس والاحتمال، قاطع الدلالة على الغرض، صادقًا لا يتسرب إليه الريب.

يقول ابن خلدون عن أدب هذه الفترة في معرض كلامه على الخطابة الإسلامية عند المسلمين منذ عهد محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى العهد الأموي وإلى الصدر الأول من العهد العباسي؛ أن كلام الإسلاميين مِن العرب أعلى طبقة في البلاغة مِن كلام الجاهلين في منثورهم ومنظومهم؛ قال: "فإننا نجد شعر حسان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، والحُطيئة، ... وأمثالهم، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية، وصدْر الدولة العباسية، في ترسُّلهم، وخُطَبِهم، ومُحاورتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة مِن شعر النابغة وعنترة، ... ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاورتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة"(٢).

(١) ينظر: حسن، محمد عبد الغني، الخطب والمواعظ: ص ٤٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ص ٣٥٩.

المبحث الثاني

الخصائص الأسلوبية للنثر الفني في القرن الرابع الهجري

لا يمكن تناول الخصائص الأسلوبية لأدب القرن الرابع الهجري إلا بتصور ما كانت عليه الحياة الأدبية والعقلية في ذلك العصر.

فعندما بدأت ترجمة الفلسفة اليونانية وعلوم الفرس والهند وغيرها إلى اللغة العربية في عهد المأمون وما بعده، أخذ العلماء والمتكلمون والكتاب بتشرب هذه الفلسفة، واستيعاب تفاصيلها؛ وإدخالها ضمن دراساتهم ومباحثهم في العقائد والنبوات واللغة والنحو والبلاغة وغيرها من العلوم؛ فنشطت "في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بيئة جديدة ... هي البيئة المتفلسفة"(١). ولهذا قال الجاحظ: "ولا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكنًا في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما"(٢).

والجاحظ عندما يتكلم بهذا لا يعبر عن وجهة نظره هو، إنما يعبر عن عصر بأكمله شاع فيه علم الكلام وفنونه، فقد انكب أهل ذلك العصر من المتكلمين على قراءة الكتب المترجمة من الفلسفة وغيرها؛ فتشعبت بهم السبل في نواحي العلم والثقافة والكلام. حتى بلغوا الغاية في القرن الرابع تأثرًا وتأثيرًا، "ولا نقرأ فيما خلفه هؤلاء المتكلمون حتى يبهرنا لسنهم، وقدرتهم على الحجاج والإقناع، وقد كانت المناظرة في موضوع من الموضوعات تنعقد أحيانا بين اثنين منهم، فتظل أيامًا لا في أصول الدين، ولا في الرد على الملحدين فحسب، بل في كل موضوع يمكن أن يفد إلى أذهانهم"(٣).

---

(١) ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ١٢٥.

(٢) الجاحظ، الحيوان: ١٣٤/٢.

(٣) ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي: ١٢٨/١.

ولم يسلم أحد من الكتاب من دخان الفلسفة والنزعة العلمية والعقلانية بمن فيهم الشريف الرضي، نجد ذلك جليًّا في كتابيه مجازات القرآن والمجازات النبوية؛ إذ يضفي على بحثه البلاغي تلك النزعة العلمية والفلسفيّة التي تأثر بها من واقع زمانه وعصره(١).

وفي العصر العباسي أيضًا بدأ التشيع لآل البيت يزدهر في الأوساط العلمية والثقافية، بل والسياسية، وبخاصة عندما استولى البويهيون على مقاليد الأمور لأكثر من قرن من الزمان [٣٣٤-٤٤٧هـ]. وكان القرن الرابع ميدانًا خصبًا لتحكم البويهيين بالعلماء والأدباء والكتاب، وتوجيههم نحو إبراز التوجه الشيعي في حياة ذلك العصر، وإشهار مفاخر آل البيت، وإظهار مطالبهم، والكشف عن مظالمهم من خلال القصائد الشعرية والكتابات النثرية والمواهب التأليفية. وليس أدلّ على ذلك مما جاء في رسائل بديع الزمان الهمذاني(٢)، ورسائل الخوارزمي(٣)، وزهر الآداب(٤)، ومقاتل الطالبيين(٥) وغيرها.

في ذلك العصر المليء بكل أنواع الفلسفة والعلوم العقلية، والعاج بكل الفرق والمذاهب الدينية السنية والشيعية، كان النثر الفني قد وصل إلى درجة عالية من درجات الاتقان والتميز في القرن الرابع الهجري، وظهر فيه أبرز كتاب اللغة العربية على مر عصورها كابن العميد، والصابي، والتوحيدي، والصاحب ابن عباد، وبديع الزمان الهمذاني، وأبي الفضل الميكالي وغيرهم.

---

(١) انظر: الشريف الرضي: مجازات القرآن: ٢/٢٦١، والمجازات النبوية: ٢١٦ – ٢١٨.

(٢) انظر: الهمذاني، رسائله: ص ٤١-٤٢.

(٣) انظر: الخوارزمي، أبو بكر: رسائله: ص ١٥٠ و ٢٠٨.

(٤) انظر: الحصري، زهر الآداب: ١/٧٧-١٠٦.

(٥) انظر: الأصفهاني، مقاتل الطالبيين. وللمزيد عن الأثر الشيعي في العصر العباسي انظر الرشود، أدب الوفادة على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: ص٩٢-٩٣.

وإذا أردنا أن نبحث خصائص النثر الأسلوبية في القرن الرابع، فإن أول ما يلحظه المتابع هو كثرة استخدام الألفاظ المولدة[١] التي استخدمها الكتاب والشعراء، نظرًا للتطور الحضاري الذي شهده ذلك العصر، وتوسع مناحي الحياة في المجالات الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية وغيرها، والحاجة إلى استحداث ألفاظ تدل على ما يستجد من معان جديدة محدثة. ومن الطبيعي أن تنتشر في كل عصر مفردات، ويكثر استعمال عبارات، وفي مقابل ذلك قد تختفي مفردات كانت معروفة في عصور قبله؛ "ولذلك فإنه عندما يتم استدعاء إحدى هذه المفردات أو العبارات يتم أيضًا استدعاء عصرها الذي ارتبطت به"[٢].

---

(١) تعريف المولد الذي استقر عليه أغلب اللغويين قديمًا وحديثًا هو: الألفاظ التي أحدثها العرب المولدون بعد عصر الاحتجاج، ولم يعرفها العرب قبل ذلك. (انظر السيوطي، المزهر: ٣٠٤/١، ووافي، فقه اللغة: ص ٢٠٣، وللمزيد عن المولد وموقعه في اللغة العربية قديمًا وحديثًا انظر خليل، المولد في العربية: ص ١٥٣-٢٦٢).
وتولدت هذه الألفاظ بعدة طرق منها: (انظر خليل، المولد في العربية: ص ١٥٣-٢٦٢).

- الاشتقاق ومن ألفاظه المشتقة على هذا النحو: المقامة من أقام.
- والتعريب ومن ألفاظه الكيمياء والديوان. والدِّيوانُ : مُجْتَمع الصحف ؛ أَبو عبيدة : هو فارسي معرب؛ ابن السكيت : هو بالكسر لا غير.
- وتغيير دلالة ألفاظ قديمة بإعطائها معاني جديدة مثل التوقيع ويعني توقيع السلطان أو توجيهه الكتابي تعليقاً على مخاطبات الولاة والوزراء وغيرهم، وهذا معنى لم تعرفه العرب الأوائل ومعناه عندهم: الدَّبَرُ وبعير مُوَقَّعُ الظهرِ : به آثارُ الدَّبَرِ، ويقال: "بعير موقع إذا دبر ظهره، ثم برأ وبقي موضعه شامة بيضاء"[١](انظر الخفاجي، شفاء العليل: ص ١١٠، وخليل، المولد في العربية: ص ٣٧٦)، والقطر بمعنى إذابة السكر في الماء، وقد كان يعني نوعاً من المطر (الخفاجي، شفاء العليل: ص ٢٤٧).
- والألفاظ الدخيلة التي دخلت على اللغة العربية من لغات أخرى دون تعريب كالترياق والآيين والاسطقس.

(٢) محسب، الأسلوبيات الأدبية: ص٦٠.

ومن الألفاظ المولدة التي تكاثرت في العصر العباسي عامة، وفي القرن الرابع الهجري خاصة، المصطلحات الفلسفية المستحدثة كالجوهر والعرض والقدم والحدوث والحد والعنصر وغيرها؛ نتيجة لشيوع الفلسفة وعلم الكلام في ذلك العصر.

ومن الألفاظ المولدة التي شاع استخدامها في القرن الرابع الهجري ما صيغ على المصدر الصناعي وما يشبهه من الأسماء المنسوبة المؤنثة[1]؛ وكان استعمال المصادر الصناعية قليلًا في الجاهلية والإسلام، ولم يكثر استعماله إلا في القرن الثاني الهجري وما بعده من القرون نظرًا للحاجة إليه في الدلالة على معاني الأشياء، والمصطلحات المستحدثة في الدين والفكر والفلسفة والحضارة. وقد وردت في القرآن الكريم مصادر صناعية قليلة جدًّا مثل رهبانية في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ} (الحديد: ٢٧)، وجاهلية في قوله تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} (المائدة: ٥٠).

(١) (المصدر الصناعي هو اسم يصاغ من اسم آخر بزيادة ياء مشددة وبعدها تاء مربوطة في آخره. ويكون ذلك في اسم الذات كـ...الإنسانية والحيوانية، وفي اسم المعنى كالرجعية والانهزامية...، وفي الأسماء المبنية نحو كيف وكيفية...،والأسماء المشتقة نحو شاعر وشاعرية، ومفهوم ومفهومية،...، وفي العبارات نحو رأس مال ورأسمالية، وما هو وماهية، وصيغة الجمع نحو ملائكة وملائكية، وصبيان وصبيانية، والأسماء الأعجمية نحو ديمقراطية، وكلاسيكية)، (انظر السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعان: ص ٨٩). أما الأسماء المنسوبة فإنه يضاف إليها تاء التأنيث إذا أتت وصفًا لاسم مؤنث مثل: (الكلية الجامعية)؛ فكلمة (الجامعية) صفة لكلمة مؤنثة هي (الكلية). فالأسماء المنسوبة المؤنثة تشابه المصادر الصناعية في الشكل، وتختلف عنها في التركيب والعمل.

كما وردت مصادر صناعية وأسماء منسوبة مؤنثة في بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مثل العصبية والعمية والجاهلية في مثل قوله: "مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ "(١)؛ فكلمتا العمية والجاهلية هنا اسمان منسوبان لكونهما جاءتا نعتين للكلمتين المؤنثتين اللتين قبلهما، وأما كلمة عصبية في الحالتين فهي مصدر صناعي.

وازداد استخدام المصادر الصناعية وما يشبهها من الأسماء المنسوبة المؤنثة في القرن الرابع الهجري عصر ازدهار الحضارة العربية والإسلامية، مما ترتب عليه ازدياد الحاجة إلى هذا الوعاء اللفظي السهل لاستيعاب الكثير من المصطلحات الجديدة، وازداد استخدام هذه الألفاظ لدى الكتاب و المترسلين. ومن أمثلة ورودها في كتابات القرن الرابع الهجري ما جاء في إحدى رسائل بديع الزمان الهمداني: "إن أقاموا فالسيوف الهندوانية، وإن أيمنوا فالأتراك والخانية، وإن أيسروا فجرجان والجرجانية، وإن استأخروا فالعطش والبرية"(٢)، وفي قوله أيضًا: "ودون الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية، والمدة المروانية، والسنين الحربية، والبيعة الهاشمية، والأيام الأموية، والإمارة العدوية، والخلافة التيمية"(٣).

كما شاع في نثر القرن الرابع الهجري كثرة استخدام الألفاظ الغريبة التي تستدعي إعمال الفكر لاستجلائها ومعرفة معانيها، وقد أشار أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) منتقدًا أولئك الكتاب والشعراء الذين أوغلوا في استخدام الغريب من الكلام فقال في كتابه (كتاب الصناعتين): "وَقَدْ غَلَبَ الجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ الكَلَامَ إِذَا لمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ إِلا بِكَدٍّ، وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا

(١) مسلم، صحيحه: ص ١٤٧٨ ورقم الحديث ١٨٥٠.

(٢) الهمذاني، رسائله: ص ١١.

(٣) الهمذاني، المصدر نفسه: ص ١٢.

وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً، وَيَسْتَحْقِرُونَ الكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّهْلَ آمَنُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا، وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا"(١).

وقد عاب كتاب القرن الرابع الهجري الجاحظ لعدم استخدامه هذه الألفاظ المعقدة، فجاء في المقامة الجاحظية لبديع الزمان على لسان أحدهم: "فَهَلُمُّوا إِلَى كَلَامِهِ[أي الجاحظ]؛ فَهُوَ بَعِيدُ الإِشَارَاتِ، قَرِيبُ العِبَارَاتِ، قَلِيلُ الاسْتِعَارَاتِ، مُنْقَادُ لِعُرْيَانِ الكَلَامِ يَسْتَعْمِلُهُ، نَفُورٌ مِنْ مُعْتَاصِهِ يُهْمِلُهُ، فَهَلْ سَمِعْتُمْ لَهُ لَفْظَةً مَصْنُوعَةً ، أَوْ كَلِمَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ"(٢). فاستخدام الألفاظ المعتاصة والكلمات غير المسموعة التي يستخرجها الكتاب من أعماق مخزوناتهم اللفظية نوع من البلاغة لم يستطع الجاحظ – في نظرهم– أن يحققه، أو يلحق بهم فيه.

وقد استغلقت المعاني على غير المتعلمين، أو أصحاب الفطر السليمة التي لم تمتزج بهذه المعاني الجديدة؛ ولم تستوعب هذه المصطلحات والتراكيب الجديدة، فكانت ردود أفعالهم مناقضة لأولئك الكتاب والفلاسفة، ومن ذلك ما قاله أعرابي شاعر، معربًا عن احتجاجه على النحاة ومصطلحاتهم وقوانينهم النحوية والصرفية:

مَازَالَ أَخْذُهُم فِي النّحْوِ يُعْجِمُنِي حَتَّى سَمِعْتُ كَلَامَ الزِّنْجِ وَالرُّومِ(٣)

وقد احتاج الكتاب والمترسلون نتيجة لهذا الزخم الهائل من الألفاظ المولدة والمصطلحات المستحدثة في العلوم الفلسفية والعلمية، والكم الكبير من التراكيب اللغوية المعقدة إلى الإطناب في الكلام، وإطالة العبارة لتمثيل المعاني واستيعاب الأفكار؛ فأصبح ما يقال في العصور الأولى في سطور يقال ويكتب في

(١) العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين: ص ٦٦.

(٢) الهمذاني، مقاماته: ص ٩٠، وانظر الحصري، زهر الآداب: ٥٤٤/٢.

(٣) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة: ٢٣٥/١.

صفحات؛ وخير دليل على ذلك ما نراه في رسائل الملوك والأمراء، وفي عهودهم في القرن الرابع الهجري(١).

واستخدام الأساليب البيانية والصنعة البديعية كان جزءًا من بلاغة النثر في القرن الرابع الهجري، وخصيصة من خصائصه التي تميز بها؛ فلهذا كثرت الاستعارات في الكتابة، وإيثار البديع في الترسل في ذلك القرن.

فاستخدام المجاز بشكل عام، والاستعارة بصفة خاصة، والمبالغة فيها، وتعسف الكلام حتى يصيبها الكاتب كان شائعا في ذلك العصر. وإذا نظرت إلى أية رسالة أو مقامة كتبت في القرن الرابع فستجد دلائل ما نقول. فمن ذلك ما ورد في إحدى رسائل أبي الفضل الميكالي: "أَيَادِيه التِي غَمَرَتْنِي سِجَالُهَا، وَاتّسَعَ عِنْدِي مَجَالُهَا، وَأَعْيَا شُكْرِي عَفْوُهَا وَانْثِيَالُهَا، تَنَاوَلْتُ فِيهَا الْمُنَى دَانِيَةَ القُطُوف، واجْتُلِيَتْ أَنْوَارُ العَيْشِ مَأْمُونَةَ الكُسُوف، لَيْسَ يَكَادُ يَبْرُدُ غَلِيلُ شَوْقِي وَحَنِينِي، أَوْ تَرْجِعُ نَافِرَةُ أُنْسِي وَسُكُونِي، أَوْ تَخْلُو مِن الاهْتِمَامِ وَالفِكْرَةِ فِيهِ خَوَاطِرِي وَظُنُونِي، إلا بِالْتِقَاءِ يَدْنُو أَمَدُهُ، وَيَقْرُبُ مَوْعِدُهُ، وَتَعْلُو عَلَى الفِرَاقِ يَدُهُ، فَنُعَاوِدُ الْعَيْشَ طَلْقًا غَزِيرًا، وَنَجْتَنِي ثَمَرَ الْمُنَى غَضًّا نَضِيرًا، وَنَجْتَلِي وَجْهَ الزَّمَانِ مُشْرِقًا مُنِيرًا"(٢). فهذه القطعة القصيرة من إحدى رسائل الميكالي تكاد لا تخلو جملة من جملها من استعارة لطيفة أو تشبيه ظريف. وعلى هذا فَقِسْ كثيرًا من كتابات ذلك القرن ومدوناته النثرية.

وقد كان الكتاب السابقون يميلون إلى المحسنات البديعية ولكن في غير إسراف، فلما جاء كتّاب القرن الرابع الهجري قصدوا إلى ذلك قصدًا، وقد أسرف بعضهم في توشية الكتابة بفنون الاستعارة والطباق والمقابلة والجناس والسجع.

---

(١) انظر على سبيل المثال، الصابي، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي.

(٢) انظر الحصري، زهر الآداب: ٢/٥٤٧.

وآية ذلك أن مؤلفي البلاغة في القرن الثالث الهجري وما قبله، ما كانوا يحرصون كل الحرص على المحسنات اللفظية، بل كانوا يلمون بها إلمامة خفيفة، فلما جاء مؤلفو البلاغة في القرن الرابع الهجري، حرصوا عليها أشد الحرص، بل ألفت الكتب التي تساعد الكتاب والخطباء، وتصلح أخطاءهم حين يعمدون إلى استخدام هذه المحسنات، فهذا ابن جعفر صاحب مقدمة جواهر الألفاظ يقول: "وقد أُلف للألفاظ غير كتاب، فقيل: أصلح الفاسد، وضم النشر، وسد الثلم، وأسا الكلم، فوزن أصلح الفاسد مخالف لوزن ضم النشر وسد الثلم، وكذلك سد وأسا، ولو قيل: أصلح الفاسد، وألف الشارد، وسد العند، وأصلح ما فسد، وقوم الأود...." (١).

وعلى هذا المنوال نسج الكتاب والمترسلون في معظم كتاباتهم هذا الأسلوب، وأضحى البديع وما يمثله من جناس وطباق ومقابلة وسجع ... إلخ، من أهم السمات الأسلوبية التي اعتمدوها. ومن أولئك الشريف الرضي الذي نجد أثر ذلك الاستخدام واضحًا في كتاباته(٢).

---

(١) ابن جعفر، مقدمة جواهر الألفاظ: ص٢.

(٢) للشريف الرضي تآليف عدة، منها:

- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، يتألف من عشرة أجزاء كلها مفقودة إلا الجزء الخامس.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، وهو شرح للمجازات الواردة في القرآن الكريم.
- المجازات النبوية، وهو شرح للمجازات الواردة في ثلاثمائة وواحد وستين حديثًا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.
- سيرة والده.
- الحسن من شعر الحسين.
- أخبار قضاة بغداد.
- ديوان شعره.

فمثلاً نلاحظ أنه يرى أن التقابل –وهو لون من الألوان البديعية– عبارة عن تآليف لأجزاء الكلام وملاحمة بين أعضائه[١]، كقوله: "العَاذِرُ لَنَا فِي هَذَا أَنَّ كِتَابَنَا قَدْ بَعُدَتْ أَوَائِلُهُ عَنْ أَوَاخِرِهِ، وَانْفَرَجَ مَا بَيْنَ أَعْنَاقِهِ وَأَرْدَافِهِ"[٢].

ومن أمثلة المقابلة أيضًا، ما ورد لدى أبي حيان التوحيدي في كتابه أخلاق الوزيرين حينما قال: "فَكُلُّ مَنْ كَانَ نَصِيبُهُ مِن الكَيَسِ وَالحَزَامَةِ أَكْثَرَ، كَانَ قَسْطُهُ مِنَ النَّفْعِ وَالعَائِدَةِ أَوْفَرَ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَظُّهُ مَنَ العَقْلِ وَالتَأْيِيدِ أَنْزَرَ، كَانَتْ تِجَارَتُهُ فِيهَا أَخْسَرَ وَعَاقِبَتُهُ مِنْهَا أَعْسَرَ"[٣].

كذلك كان السجع من أهم سمات البديع التي التزم بها الكتاب في القرن الرابع الهجري، بل كانوا يفتخرون بإرسال الأسجاع على البديهة، ويتنافسون في إنشائها، ويذمون من حفظها، كالذي وقع فيما كتبه بديع الزمان الهمذاني عن المناظرة التي كانت بينه وبين الخوارزمي؛ حيث جاء في بعض ما قاله: " فَأَخْبِرْنِي يَا أَبَا بَكْرٍ[أي الخوارزمي]، لِمَ غُشِيَ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: حُمَّى الطَّبْعِ وحُمَّى الفَرُوِ. فَقُلْتُ: أَيْنَ أَنْتَ مِنَ السَّجْعِ؟ هَلَّا قُلْتَ: حُمَّى الطَّبْعِ وحُمَّى الصَّفْعِ... فَقُلْتُ: لَا تَظْلِمُوهُ، وَلَا تُطْعِمُوهُ طَعَامًا، يَصِيرُ فِي بِطْنِهِ مَغَصًا، وفِي عَيْنِهِ رَمَصًا، وَفِي جِلْدِهِ بَرَصًا، وَفِي حَلْقِهِ غُصَصًا. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذِهِ أَسْجَاعٌ كُنْتَ حَفِظْتَهَا فَقُلْ كَمَا أَقُولُهُ: يَصِيرُ فِي عَيْنِكَ قَذًى، وَفِي حَلْقِكَ أَذًى، وَفِي صَدْرِكَ شَجًى، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، عَلَى الأَلِفِ تُرِيدُ؟ خُذْ الآنَ: بِفِيكَ البَرَا، وَعَلَى هَامَتِكَ الثَّرَى...إلخ"[٤].

ويتطور الأمر ، وينتقل السجع من أصحاب المقامات إلى معظم الأدباء والمترسلين من كتاب الدواوين والرسائل، ويصل إلى حد التكلف الممجوج بعد ذلك، مع استخدام الألفاظ الغريبة في كتابات مثل كتابات أبي العلاء المعري في

(١) انظر: الشريف الرضي، المجازات النبوية: ص٢٩.

(٢) الشريف الرضي، حقائق التنزيل: ١٦/٥.

(٣) انظر التوحيدي، أخلاق الوزيرين: ص٣.

(٤) الهمذاني، رسائله ٥٥–٥٦. وانظر الحموي، معجم الأدباء: ٢٤٣/١–٢٤٤.

كتابه الفصول والغايات حين يقول: "أُقْسِمُ بِخَـالقِ الخَيْـلِ، وَالعِـيسِ الوَاجِفَـةِ بِالرَّحِيلِ، تُطْلَبُ بِمَوْطِنٍ جَلِيلٍ، وَالرِّيحِ لَهَّابَةٍ بِلَيْلٍ، بَيْنَ السَّوْطِ وَمَطَالِعِ سُهَيْلٍ، إِنَّ الكَافِرَ لَطَوِيلُ الوَيْلِ، وَإِنَّ القَمَرَ لَمَكْفُوفُ الذَّيْلِ، شِعْرُ النَّابِغَةِ وَهُـذَيْلٍ، وَغِنَـاءُ الطَّيْرِ عَلَى الغَيْلِ"(١).

واستخدام الجناس كثير في القرن الرابع الهجري وهو من ضمن المحسنات البديعية التي أغرم بها الكتاب والمترسلون في ذلك العصر، ومثال ذلك ما كتبه بديع الزمان الهمذاني في إحدى رسائله:" وَأَنَا أَحمدُ الله إلى الشَّيخِ، وأَذُمُّ الدَّهْرَ؛ فما تَرَكَ لِي فِضَّة إلا فَضَّها، ولا ذَهبًا إلا ذَهَبَ بِه، ولَا علقًا إلا عَلَقه، ولا عَقَارًا إلا عَقَرَهُ، ولا ضَيْعَةً إلا أَضَاعَهَا، ولا مَالًا إلا مَالَ إِلَيْه، ولا حَالًا إلا حَالَ عَلَيْه، ولا فَرَسًا إلا افْتَرَسَه، ولا سَبَدًا إلا اسْتَبَدَّ بِه، ولا لَبَدًا إلا لَبَدَ فِيه، ولا بَـزَّةً إلا بَزَّهَا"(٢)

كذلك فإن أهم ما يميز أدب القرن الرابع الهجري، هو تداخل الأغـراض والموضوعات بين الشعر والنثر فأصبح ما يقال في النثر يقال مثله وأفضل منه في النثر، لتحرره من قيود الشعر، وقدرته على التفنن في صناعة الكلام؛ فكان هناك نثر المدح ونثر الهجاء ونثر الوصف وغيرها من الأغراض، انتقالًا مـن شعر المدح والهجاء والوصف. وهذا النمط من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع.

فأصبح الكتاب والمترسلون يتفننون في المدح والهجاء، فالمديح كثير في رسائلهم وفي مؤلفاتهم بحيث تجده عند كل أحد، وعلـى لـسان كـل خطيـب ومتحدث وكاتب. وأما النثر الهجائي فهو أسلوب تجد خير أمثلته لدي أبي حيان

(١) المعري، الفصول والغايات: ٧٦/١.

(٢) الهمذاني، رسائله: ص٦٨.

التوحيدي الذي ألف كتابًا كاملًا في "أخلاق الوزيرين"[١]، أو ما سمي بـ "مثالب الوزيرين" لم يترك فيه مذمة إلا وصمهما بها، ولا منقصة إلا شنع بها عليهما. وتجد الأسلوب الهجائي واضحًا وجليًّا أيضًا عند بديع الزمان الهمذاني؛ ومن ذلك مقطوعة نثرية له يهجو فيها أحد القضاة نافست في هجائيتها القصائد الشعرية[٢]. وقد سمى أبو حيان عددًا من هجَّائي النثر الذين سبقوه كالجاحظ ثم قال عن الهجاء النثري: "وَالذي ذَكَرْتُهُ عَن الجَاحِظِ فَلَيْسَ هُوَ أَوَّلَ مَن اقْتَضَبَهُ وَسَنَّهُ، بَلْ قَدْ سَلَفَ فِيهِ قَوْمٌ كِرَامٌ، وَخَلَفَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ جِلَّةِ النَّاسِ. أَنَا قَرَأْتُ رِسَالَةً لِابْنِ المُقَفَّعِ فِي مَعَايِبِ بَعْضِ آلِ سُلَيْمَانَ... وَكَذَلِكَ أَصَبْتُ رِسَالَةً لِسَهْلِ بنِ هَارُونَ فِيْ مَثَالِبِ الحَرَّانِي، وَرَأَيْتُ رِسَالَةً لِسَعِيدِ بنِ حُمَيْدٍ فِي فَضَائِحِ آلِ عَلِيِّ بنِ هِشَامٍ، وَحَتَّى الصُّولِي بِالأَمْسِ ذَمَّ بَعْضَ بَنِي المُنَجِّمِ فِي رِسَالةٍ لَهُ"[٣].

ومن أمثلة الهجاء النثري ما جاء في كتاب أخلاق الوزيرين في وصف الصاحب ابن عباد وهجائه:" لَهُ...فِي الحَسَدِ عِرقٌ ضَارِبٌ، وَفِي الكَذِبِ عَارٌ لَازِبٌ، لَا يَنْزَعُ عَن المَسَاوِي إِلَّا مَلَلًا، وَلَا يَأْتِي الخَيْرَ إِلَا كَسَلًا، ظَاهِرُهُ ضَلَالَةٌ، وَبَاطِنُهُ جَهَالَةٌ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الكِرَامِ دَلَالَةٌ، وَلَا فِي الإِحْسَانِ إِلَى الأَحْرَارِ آلَةٌ. فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَهُ غَيْظًا لِأَهْلِ الفَضْلِ وَالأَدَبِ، وَأَعْطَاهُ فَيْضًا مِنَ المَالِ وَالنَّشَبِ"[٤].

وأما الوصف فكان له نصيب كبير في نثر القرن الرابع الهجري؛ حيث تنافس المترسلون في الوصف المنثور والإسهاب فيه، والعناية بتفاصيل الموصوف، لم يتركوا شيئا يمكن وصفه ألا وصفوه سواء كانت إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا أو جمادًا.

---

(١) انظر التوحيدي، أخلاق الوزيرين.

(٢) انظر الهمذاني، رسائله: ص٨٤-٨٨.

(٣) التوحيدي، أخلاق الوزيرين: ص٧١-٧٣.

(٤) التوحيدي، المصدر نفسه: ص١٠٧.

ومما قيل في الوصف المنثور ما ورد في وصف دُواة الحبر: "...دُوَاةٌ أَنِيقَةُ الصَّنْعَة، رَشِيقَةُ الصَّبْغَة، مِسْكِيَّةُ الجِلْد، كَافُورِيَّةُ الحِلْيَة، غَدِيرٌ تَفِيضُ يَنَابِيعُ الحِكْمَة مِنْ أَقْطَارِه، وَتَنْشَأُ سُحُبُ البَلَاغَة مِنْ قَرَارِه. دُوَاةٌ تُدَاوِي مَرَضَ عُفَاتِك، وتُدْوِي قُلُوبُ عُدَاتِك، عَلَى مَرْفَعٍ يُؤْذِنُ بِدَوَامِ رِفْعَتِكَ، وَارْتِفَاعِ النَّوَائِبِ عَنْ سَاحَتِكَ، وَمِدَادٍ كَسَوَادِ العَيْنِ، وَسُوَيْدَاءِ القَلْبِ، وَجَنَاحِ الغُرَابِ، وَلُعَابِ اللِيْلِ، وَأَلْوَانِ دُهْمِ الخَيْلِ"(١).

بل لجأوا إلى الموازنة بين الموصوفات وإظهار ما يتصف به كل موصوف، وما يتميز به عن غيره من الموصوفات. وقد كان شيخ الكتاب الجاحظ من أوائل من ابتدأ الموازنة، حين وازن بين الديك والكلب، وبين الجد والهزل، وبين الكتاب والصديق، وبين الخريف والربيع، وبين السودان والبيضان، وبين الجواري والغلمان. وبنظرة واحدة إلى عناوين رسائله ترى العجب من هذا التنوع والشمول لميادين المناظرة والمفاخرة والموازنة. وكل هذه الميادين لا تخلو من وصف بليغ، وتوسع رائع في تخيل الموصوفين والموصوفات(٢).

(١) الحصري، زهر الآداب: ٥٦٢/٢، وانظر أيضًا وصف الفرس لدى الهمذاني، مقاماته: ص١٧٥-١٧٩.

(٢) انظر الجاحظ، رسائله. مواضع متفرقة.

المبحث الثالث

الخصائص الأسلوبية لنهج البلاغة

من خلال ما نوقش في المبحثين السابقين من خصائص أسلوبية اتسم بهما عصر صدر الإسلام، وعصر الشريف الرضي، القرن الرابع الهجري، وما امتاز به كل عصر من خصائص وسمات ميزته عن غيره من العصور الفنية والأدبية الأخرى، يمكن إذن تناول كتاب نهج البلاغة من حيث كونه نصًّا له سماته الفنية، وخصائصه الأسلوبية الخاصة، التي يفترض أنها تماثل الخصائص الأسلوبية لعصر صدر الإسلام. ولعله بعد إيضاح هذه الخصائص الأسلوبية والسمات الفنية تتجلى للباحث هوية الكتاب، وإلى أيّ عصر ينتمي.

ولقد اشتمل الكتاب على مقدمة وثلاثة أقسام.

في المقدمة شرح الشريف الرضي سبب جمعه للكتاب، وقدم تلخيصًا لموضوعاته، وتسميته.

أما القسم الأول: من موضوعات الكتاب، فقد عنونه المؤلف بـ(باب المختار من خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأوامره) [1]، وجمع فيه الخطب المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه والتي قيل إنه ألقاها في سني حياته وعددها مائتان وثلاث وأربعون خطبة.

القسم الثاني: أفرده المؤلف للكتب المنسوبة لعلي رضي الله عنه، وعنونه بـ(المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأولياء بلاده...)[2]، وفيه محاسن الكتب والرسائل التي قيل إنه أرسلها، وبلغ عددها تسعة وسبعين كتابًا.

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/١٣-٢/١٢٣.

(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/١٢٧- ٢/٣٠٤.

والقسم الثالث: أفرده للمختار من حِكَم أمير المؤمنين ومواعظه[1]، وبلغ عددها أربعمائة وثمانى وثمانين.

وبصفة عامة – وكما ذكر سالفًا– فإن ما يحاوله هذا البحث هو أن ينحو بهذا الأمر في اتجاه علمي ونقدي موضوعي آخر–كما أشير إلى ذلك في المبحث الأول– وهو استخدام أدوات العلم وآلياته النقدية في محاولة تحديد هوية هذا الكتاب أو بعبارة أخرى في محاولة إثبات صحة نسبة هذا الكلام لعلي رضي الله عنه من عدمها.

واستلزم ذلك اتباع المنهج الأسلوبي المقارن القائم على تتبع الألفاظ والتراكيب والأساليب البلاغية، وسمة كل عصر من العصور في استخداماته لها.

فقد كان لكل عصر من عصور الأدب ما يميزه عن العصر الذي يليه أو الذي قبله من الخصائص والسمات الأسلوبية، ومن استحداث خصائص أسلوبية بعينها ما كان لها أن تكون في العصر الآخر نظرًا لحداثة ظهورها.

كما كان للتطور العقلي والفكري الذي شهدته الأمة، والانفتاح على ثقافات ولغات الأمم والشعوب الأخرى، إسهامه في إثراء الجانب الأسلوبي وإضفاء خصائص أسلوبية جديدة أصبحت سمة بارزة من سمات عصرها، ودليلًا على ذلك العصر.

لقد خرج هذا الكتاب من رحم عصرين مهمين يتجاذبانه، جرى الحديث عن خصائصهما الفنية وسماتهما الأسلوبية في المبحثين السابقين، فعلي رضي الله عنه الذي ينسب إليه محتوى الكتاب من الخطب والأمثال والحكم، ينتسب إلى صدر الإسلام، عصر بداية الفتوحات الإسلامية، وعصر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والدوران في فلكيهما، وجامعه الشريف

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٣٠٧– ٢/٤١٤.

الرضي ينتسب إلى القرن الرابع الهجري بكل خصائصه وتلويناته العقلية والفلسفية والفنية.

لذلك فإن المنهج الأسلوبي المقارن حقيق بأن يكشف ما يمكن أن يكون تباينًا بين عصرين في نص واحد؛ إذ من شأنه أن يحاكم النصّ بغض النظر عن قائله، من خلال معايير أسلوبية كامنة في زوايا النص نفسه، وهي في ذات الوقت تنتسب إلى هذا العصر أو ذاك.

وقبل الولوج إلى الخصائص الأسلوبية لنهج البلاغة فإن هناك بعض الظواهر العامة التي يمكن لقارئ النهج أن يخرج بها.

الظاهرة الأولى التي يمكن أن يلحظها القارئ هي أن نهج البلاغة يحمل نَفَسًا شيعيًّا واضحًا، وميلًا مذهبيًّا في النواحي العقدية والسياسية والفقهية، بما يخالف ما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عامة، وبما عرف عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه خاصة، يظهر ذلك في معظم الخطب والمراسلات. ومن مظاهر هذه النزعة الشيعية ما يلي:

-إظهار أحقية الإمام علي رضي الله عنه بالخلافة ، وتقديمه على الخلفاء الراشدين الثلاثة قبله؛ ففي إحدى خطب النهج يقول الإمام علي رضي الله عنه:" أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَّا، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ"(١)، ويقول في خطبة أخرى: "وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي، وَأَنْتُم تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ"(٢)، وفي خطبة أخرى يقول:"فَوَاللهِ مَازِلْتُ مَدْفُوعًا عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَرًا عَلَيَّ، مُنْذُ أَنْ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا"(٣).

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢٩/١.
(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٠٨/١.
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤١/١. ولمزيد من الأمثلة انظر: ١٤٣/١، ١٤٢/١، ٣٠٤/١، ٣١٤/١، ٣٨٢/١، ٤٠٤/١، ٤١٠/١، ٤٧٠/١، ٢٧/٢، ٢٩/٢، ٣١/٢، ٥٥/٢.

– المغالاة في اعتزاز الإمام بنفسه وبآل البيت؛ كقوله رضي الله عنه فيما يرويه صاحب النهج: "بَل انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُم اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ البَعِيدَةِ"(١)، ويقول أيضا:" فَقُمْتُ بِالأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا، وَنَطَقْتُ حَينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا، وَكُنْتُ أَخْفَضُهُم صَوْتًا، وَأَعْلَاهُم فَوْتًا، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا"(٢)، ويقول:" وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي –أي الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي المَوَاطِنِ التِي تَنْكِصُ فِيهَا الأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا"(٣). وعن آل البيت رضوان الله عليهم يقول: "لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ أَبَدًا. هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَادُ اليَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الغَالِي، وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلَايَةِ، وَفِيهِمْ الوَصِيَّةُ وَالوِرَاثَةُ"(٤)، ويقول:" أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ"(٥).

– مع احتقار الآخرين وذمهم، وهذه قضية لافتة حيث إن معظم الخطب لا تحوي اعتزازًا بعلي رضي الله عنه أو آل بيته إلا وتشير بالاحتقار للآخرين في مقابل ذلك، وذكرهم بالسوء، والحط من مكانتهم، ابتداء من الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين له رضي الله عنه وعنهم، مرورا بمعاوية بن أبي سفيان(٦)،

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٠/١.

(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٩٨/١.

(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٥٨/١.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة ٢٨/١.

(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢٢٤/١. وللمزيد من الأمثلة انظر: ١٧٥/١–١٧٦، ٢٢٨/٢.

(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٢٥/١، و ٤٦٨/١، و ١٤١/٢–١٤٣، و ١٥٠/٢–١٥٢.

وعمرو بن العاص[١]، وطلحة بن عبيد الله[٢]، والزبير بن العوام[٣]، وعائشة[٤] رضي الله عنهم وبني أمية[٥]، بل قبيلة قريش في مجملها[٦]، وانتهاء بأصحاب علي رضي الله عنه ومشايعيه[٧]. ومن أمثلة ذلك ما جاء في إحدى الخطب من الحط من الخلفاء الراشدين الثلاثة:" أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ...حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِه، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابْنِ الخَطَّابِ بَعْدَهُ...فَيَا عَجَبًا! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِه، إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِه، لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا!... فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرِ اللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ... إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ نَافِجًا حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِه"[٨].

- ادعاء علم الغيب وتأصيله بما يوافق عقائد الشيعة في أئمتهم، حيث يقول: "وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُم بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ...وَالذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلا صَادِقًا، وَلَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّه، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلَكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلُ هَذَا الأَمْرِ، وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَا أَفْرَغَهُ فِي أُذُنِي، وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ"[٩]. علمًا بأن

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٦٥/١.
(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٣١٥/١، ٣٣٧/١، ٤١٢/١، ١٢٧/٢ .
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٣١٥/١، ٣٣٧/١، ١٢٧/٢.
(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٣٦١/١، و ١٢٧/٢.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٧٦/١ ، ١٤٠/٢-١٤١، و ١٥١/٢-١٥٢.
(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٠٨/١، ٢٩/٢، و ١٣٧/٢.
(٧) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٧١/١، ٧٨/١-٧٩، ٨٣/١-٨٤، ١٠١/١، ١٣٦/١-١٣٧، ٢١٠/١، ٢١٦/١-٢١٨، ١٦٣/١، ٢٩٣/١ و ١/ ٤٢٦، ١١٠/٢-١١١.
(٨) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢٩/١-٣٣.
(٩) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤١٤/١-٤١٥، وانظر أيضًا: ١٢١/١، ١٤١/١، ٢٠٨/١، ٢٢٦/١، ٢٣٥/١، ٢٧٢/١-٢٧٣، ٢٩٧/١، ٢٩٩/١-٣٠٠، ٣١٨/١-٣٣٠، ٣٧١/١.

عقيدة المسلمين هي أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لا يعلم شيئًا من ذلك إلا ما أخبره الله عز وجل به؛ حيث ورد في القرآن الكريم على لسان رسول الله قوله: "وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ"(١).

– نهج البلاغة يظهر علياً رضي الله عنه شخصية ناقمة تنظر إلى المجتمع نظرة سوداوية، فهو مجتمع قد ارتكس في الفتنة، وانغمس في المعصية والجحود؛ فمنذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والمجتمع الإسلامي يعيش في فترة حالكة، فترة جور وظلم، لم ير الناس فيها عدلًا، ولم يروا رغدًا من العيش. مجتمع يمور بالفتنة، وتحاك فيه المؤامرات، والناس بين فاتن ومفتون. ومن أمثلة ذلك قوله رضي الله عنه فيما ينسب إليه: :"قَدْ دَرَسَتْ أَعْلَامُ الهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ"(٢)، ويقول أيضا:" وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ، أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ القَائِلُ فِيهِ بِالحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللازِمُ لِلحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى العِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الادِّهَانِ. فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ. لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُم كَبِيرَهُم، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُم فَقِيرَهُم"(٣). وفي موضع آخر يقول: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ شَدِيدٍ، يُعَدُّ فِيهِ المُحْسِنُ مُسِيئًا، ، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا؛ لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحلَّ بِنَا.

(١) الأعراف: ١٨٨.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/١٨٠.

(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٦١.

فَالنّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ إِلا مَهَانَةُ نَفْسِهِ،...وَمِنْهُمْ المُصْلِتُ بِسَيْفِهِ، وَالمُعْلِنُ بِسِرِّهِ...وَمِنْهُمْ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ...وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ المُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ...وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ المَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ المَحْشَرِ؛ فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التّقِيَّةُ، وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا"(١).

وقد روى الشريف الرضي هذه الخطبة لعلي رضي الله عنه، نافيًا نسبتها لمعاوية رضي الله عنه، متابعًا في ذلك الجاحظ الذي رواها لمعاوية، ولكنه شكك في نسبتها إليه، وذكر أنها أليق بعلي؛ لأن مذهبها "في تصنيف الناس، وفي الإخبار عما هم فيه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف أشبه بكلام علي رضي الله عنه ومعانيه وحاله منه بحال معاوية"(٢)، وقد أحسن الشريف الرضي والجاحظ في نفي نسبة هذه الخطبة لمعاوية، وأخطآ في نسبتها لعلي رضي الله عنه؛ فمتى كان الناس في ظلم وجور وقتل وتقية؟ أفي عهده رضي الله عنه؟ أم في عهد من سبقه من الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم؟ وقد نفى رضي الله عنه في خطبة أخرى منسوبة إليه أن يكون هذا الأمر في عهده حين قال: "قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَأَلْبَسْتُكُم العَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُم المَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُم كَرَائِمَ

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه ١/٨٧-٨٨. وانظر أمثلة أخرى:١/٤٠، ٤٢/١، ٥٥/١-٥٧، ٢٢٦/١-٢٢٧، ٢٤٤/١-٢٤٥، ٣١٩/١-٣٢٠، ٣٤٥/١-٣٤٨، ٣٥٥/١، ٣٦٤/١-٣٦٥، ٥٧/٢، ٦١/٢، ٧٥/٢-٧٦، ١١٠/٢-١١٢.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٨٩/١. وانظر الجاحظ، البيان والتبيين: ٥٩/٢-٦١.

الأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي"[1]. فلم يبق إلا أن هذا الظلم والجور في عهد من سبقه من الخلفاء، وهذا ما يجمع على نفيه الثقات من الرواة والمؤرخين.

ومن الناحية الفقهية، فإن كلامًا مرويًّا في النهج ينكر القياس في الأحكام الفقهية وهو ما يوافق المذهب الشيعي الذي ينكره[2]. وقد شكك ابن أبي الحديد في رواية هذه الكلام، واتهم الإمامية بروايته حيث قال:" واعلم أن هذه الوجوه هي التي يتعلق بها الإمامية ونفاة القياس والاجتهاد في الشرعيات، وقد تكلم عليها أصحابنا[المعتزلة]، ودفعوا صحة هذا الكلام المنسوب في هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقالوا: إنه من رواية الإمامية، وهو معارض بما ترويه الزيدية عنه وعن أبنائه عليهم السلام في صحة القياس والاجتهاد"[3]. والوجوه التي يقصدها ابن أبي الحديد هي الكلام المذكور في النهج المنسوب إلى الإمام علي رضي الله عنه: "أَفَأَمَرَهُم اللهُ تَعَالَى بِالاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ، أَمْ نَهَاهُم عَنْهُ فَعَصَوْهُ، أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ، أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى، أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامًّا فَقَصَّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ فِي تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: "مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ"، وَفِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيءٍ وَذَكَرَ أَنَّ الكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/١٧٦.

(٢) يقول يوسف البحراني وهو أحد كبار علماء الشيعة: " ولهذا قد استفاضت الأخبار بالنهي عن القول في الأحكام الشرعية بغير سماع منهم عليهم السلام ، و علم صادر عنهم – صلوات الله عليهم ــ ....، وما ذاك إلا لقصور العقل المذكور عن الإطلاق على أغوارها، ... بل لو تم للعقل الاستقلال بذلك لبطل إرسال الرسل، و إنزال الكتب، ومن ثم تواترت الأخبار ناعية على أصحاب القياس بذلك " (انظر البحراني، الحدائق الناظرة: ١/١٣١).

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/٢٩٠.

بَعْضًا، وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:" وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"(١).

ويكشف نهج البلاغة عن ظاهرة أخرى هي تلك النزعة الاعتزالية العقلانية الجلية. وقد أقر الشريف الرضي في مقدمته بوجود هذه النزعة حين قال: "وَيَمْضِي فِي أَثْنَائِهِ [أي نهج البلاغة] مِنْ عَجِيبِ الكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَالعَدْلِ [عقيدة المعتزلة]، وَتَنْزِيهِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ شَبَهِ الخَلْقِ مَا هُوَ بِلالُ كُلِّ غُلَّةٍ، وَشِفَاءُ كُلِّ عِلَّةٍ"(٢). وتتمثل هذه النزعة الاعتزالية العقلانية في ما يلي:

*ظهور العقيدة المعتزلية في نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى، والقول بخلق القرآن، وعدم رؤية الله عز وجل في الآخرة، وعدم استوائه على عرشه، وعدم الإقرار بعذاب القبر. وكلها عقائد اعتزالية لم تظهر إلا بعد عهد علي رضي الله عنه بعشرات السنين على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذين اعتزلا حلقة الحسن البصري رحمه الله المتوفى سنة ١١٠ للهجرة(٣).

ونفي الصفات في النهج منتشر في كثير من الخطب، وخاصة في مقدماتها كقوله في إحدى خطبه: "وَكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ..."(٤)، بل إن الحجة التي يدافع بها المعتزلة عن عقيدتهم في نفي الصفات هي الحجة نفسها المذكورة في الخطبة؛ حيث إنهم يرون أن إثبات الصفات هو إشراك بالله لأن الصفة تختلف عن الموصوف، والإله يتعدد بتعدد صفاته(٥).

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٥٨/١.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٩/١.

(٣) المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها: ص ١٥.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٤/١.

(٥) انظر المعتق، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها: ص ٨٤.

والقول بخلق القرآن تابع للقول بنفي الصفات عن الله عز وجل، والقرآن كلام الله والكلام صفة من صفات الله فلهذا يقولون بخلق القرآن. وفي نهج البلاغة خص القرآن بالنفي أنه من كلام الله وإنما هو مخلوق حين قال: "وَإِنّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا"(١).

أما نفي رؤية المؤمنين لله عز وجل في الآخرة فقد وردت أيضا في بعض الخطب كقول علي رضي الله عنه المنسوب إليه عن الملائكة الموكلين بحمل العرش: "لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتّصْوِيرِ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ المَصْنُوعِينَ، وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالأَمَاكِنِ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ"(٢)، هذا في حق الملائكة الموكلين بحمل العرش، فما بالك بغيرهم من عباد الله ملائكة وبشرا.

وأما عدم الإيمان بعذاب القبر، فينسب له رضي الله عنه خطبة طويلة عن حال لموتى في قبورهم لم يتعرض فيها لعذاب القبر ولا نعيم الموتى أو عذابهم، أو سعادتهم أو شقائهم في قبورهم(٣).

*الإشارة إلى العقل في كثير من الخطب، وتقديمه على النقل، وتقديم العقل على النقل من أبرز ما يميز المعتزلة. وقد وردت الإشارة إلى العقل والإشادة به في كثير من خطب النهج، فمن ذلك قوله في مدح آل البيت رضي الله عنهم: "عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ"(٤)، وقوله: "شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ العَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا"(٥)، وقوله: "فَلَوْ مَثّلْتَهُمْ

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢/٧٢.
(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/١٩.
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٣٤-٤١.
(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢/١٢٣.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/١٣١.

لِعَقْلِكَ"[١] في حديثه عن حال الموتى في قبورهم، وتكررت هذه العبارة في موضع آخر عند حديثه عن المؤمنين[٢]. ويشير إلى العقل أحيانا بأسماء أخرى كالذهن[٣] والحلم[٤] والفكر[٥]. وليست الغرابة في ذكر العقل فالقرآن الكريم ذكره، وأشاد به، وأمر بإعماله. ولكن وجه الغرابة هنا هو كثرة استخدام هذه الكلمة في عصر مبكر من تاريخ الإسلام، وتقديمه على النقل والسماع، كما في قوله السابق الذي مدح فيه آل البيت بأنهم يعون الدين عن طريق العقل، لا عن طريق السماع والرواية، وفي قوله أيضا: "اعقلوا الخير إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية؛ فإن رواة العلم كثير، ورعاته قليل"[٦] .

*وجود كثير من المصطلحات الفلسفية المحدثة التي سنشير إليها عند حديثنا عن الخصائص الأسلوبية.

وإذا انتقلنا إلى الخصائص الأسلوبية لنهج البلاغة مبتدئين بالألفاظ التي استخدمت في النهج فسنلاحظ كثرة الألفاظ المولدة التي استخدمها العرب بعد عصر الاحتجاج، وقد يكون بعضها استخدم أثناء عصر الاحتجاج لكنها لم تستخدم حتمًا في عهد علي رضي الله عنه أو قبله، وهي إما ألفاظ عامة مثل: وَظَائِف[٧]، "من فِلزِّ اللُجَيْنِ والعِقْيَان"[٨]، "سُرَادِقَاتُ المَجْدِ"[٩]، أو ألفاظ تخصصية؛ فهناك مصطلحات فلسفية ذكرت في النهج لم تعرف في عصر

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣٨/٢.
(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٣/٢. وانظر أيضًا: ٤٩/٢، ٦٢/٢، ٧٣/٢، ٨١/٢، ١٣٤/٢.
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٦٤/٢.
(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٨٠/٢.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٦٦/٢.
(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٣٢٧/٢.
(٧) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٨١/٢.
(٨) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٨٦/١.
(٩) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٩٢/١.

صدر الإسلام، ولم تعرفها اللغة العربية إلا بعد بدء الترجمة من اللغات الأخرى في العصر العباسي مثل: "قِدَمُ الرَّبِ وَحُدوثِ الخَلْقِ"(١)، "وِلَا بِعَرَضٍ مِن الأَعْرَاضِ"(٢)، "وَلَا بِالغَيْرِيَّةِ وَالأَبْعَاضِ"(٣)، "وَلَا هَمَامَة نَفْسٍ اضْطَرَبَ فَيهَا"(٤)، و"صِفَاتُ المَصْنُوعِينَ"(٥)، و"مَعْكُوسُ الحُكْمِ"(٦)، و"تناسختهم كرائم الأصلاب"(٧).

ويحاول ابن أبي الحديد شارح النهج إيجاد المخارج لاستخدام مثل هذه المصطلحات الفلسفية فيعقب مثلا على قول النهج " كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ"(٨)، بقوله: "قوله عليه السلام [كائن] وإن كان في الاصطلاح العرفي مقولا على ما ينزِّه البارئ عنه، فمراده به المفهوم اللغوي، وهو اسم فاعل من (كان) بمعنى وجد"(٩).

ويعلق ابن أبي الحديد على قول النهج: "وَلَا حَرَكَة أَحْدَثَهَا" بقوله: "فيه ردٌّ على الكرامية، الذين يقولون إنه إذا أراد أن يخلق شيئًا مباينًا عنه أحدث في ذاته حادثًا يسمى الإحداث، فوقع ذلك الشيء المباين عن ذلك المعنى المتجدد يسمى إحداثًا"(١٠).

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢/٦٤.
(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٧١.
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٧١.
(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/١٥.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/١٩.
(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٤٢٢.
(٧) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٢١٢.
(٨) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/١٥.
(٩) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/٧٨.
(١٠) ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ١/٨٠.

وعن مصطلح الهمامة يقول ابن أبي الحديد: "ولهم في الهمامة كلام مشهور، وهي لفظة اصطلحوا عليها، واللغة العربية ما عرفنا فيها استعمال الهمامة بمعنى الهمة، والذي عرفناه الهِمَّة، والهَمَّة، بالكسر والفتح، والمهمَّة، وتقول: لا هَمامِ لي بهذا الأمر مبني على الكسر كقطام ولكنها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها"(١)، وقوله: ولا همامة نفس اضطرب فيها، فيه ردٌّ على المجوس والثنوية القائلين بالهمامة، ولهم فيها خبط طويل يذكره أصحاب المقالات"(٢).

وفي هذا الكلام من الشارح إيغال فلسفي يتناسب مع النص نفسه، فينساب ابن أبي الحديد في تفصيل ذلك، دون وعيٍ أنه يجاري ألفاظًا اصطلاحية معينة لم يكن لها وجود في عصر الإمام علي رضي الله عنه.

حتى إنه يستشهد ببعض الكتب التي تتناول هذه المذاهب والرؤى الفلسفية، وهي بالطبع متأخرة عن عصر صدر الإسلام، ولم يعرفها الإمام علي رضي الله عنه، ولم تكن لتظهر في تلك الحقبة، يقول: "حكى زرقان في كتاب

(١) ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٨٣/١.

(٢) ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٨٥/١. ومفهوم الهمامة عند الثنوية يتمثل في" أن النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظلمة والإغارة عليها– فخرجت من ذاته قطعة – وهي الهمامة المضطربة في نفسه– فخالطت الظلمة غازية لها، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم، وحالت بينها وبينه، وخرجت همامة الظلمة غازية للنور الأعظم فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة، ومزجها بأجزائه، وامتزجت همامة النور بأجزاء الظلمة أيضًا، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان وتتدانيان وهما ممتزجتان، بأجزاء هذا وهذا، حتى انبنى منهما هذا العالم المحسوس" (انظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ٨٢-٨٣).

المقالات، وأبو عيسى الوراق، والحسن بن موسى، وذكره شيخنا أبو القاسم البلخي في كتاب المقالات أيضًا عن الثنوية"[١].

والتركيز على كلام ابن أبي الحديد هنا، لأنه أظهر في بدايات شرحه أنه يدافع عن نهج البلاغة ضد من يحاولون التشكيك فيه، ثم هو ينجرف في تيار الفلسفة والفِرَق التي نشأت بعد الإمام علي رضي الله عنه، ويحاول أن يفسر المصطلحات الفلسفية الواردة في الخطب بما يقابلها من مصطلحات فلسفية وآراء الفِرَق وردودها التي ظهرت بعد ذلك.

وعندما يستشعر ابن أبي الحديد ضخامة هذا التغول الفلسفي، أو عندما لا يجد تفسيرًا مناسبًا لهذه الاستخدامات للمصطلحات الفلسفية فإنه يعقب بقوله: "إن أمير المؤمنين –عليه السلام– كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه"[٢].

كما أن هناك أيضًا مصطلحات شرعية استخدمت في النهج لم تكن معروفة في عصر علي رضي الله عنه مثل: "نَاسِخًا، وَمَنْسُوخًا، وَعَامًّا، وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا، وَمُتَشَابِهًا"[٣]، ومثل استخدام مصطلح العلة في الرواية في قوله: "وَعِلَلِهم فِي رِوَايَاتِهِمْ"[٤]. ومصطلح الإسناد في قوله " على ضَعِيفٍ إِسْنَادُه"[٥]. وهذه المصطلحات معروفة في عدد من العلوم الشرعية كعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم الفقه. وبعض هذه المصطلحات معروف منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم كالناسخ والمنسوخ، بل إن بعضها ورد ذكره في القرآن الكريم

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٨٢/١.
(٢) ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ٨٠/١.
(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٢/٢.
(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٣/٢.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٣٩١/١.

كالمحكم والمتشابه في قوله تعالى:{ هُوَ الَّذِي أَنزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}(١).

ولكن استخدام هذه المصطلحات بهذا الترتيب، وبهذا التركيب، وإدخال مصطلحي العام والخاص، لم يعرف إلا في عهود لاحقة لعهد علىٍّ رضي الله عنه؛ يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله [المتوفى عام ٢٤١هـ]: "لَم نكن نعْرِفُ الخصوص والعموم حتى ورَدَ علينا الشافعيُّ – رضي الله عنه"(٢). كما أن مصطلح "العلة" لم يستخدمه الْمُحدِّثون إلا بعد البدء بتدوين الحديث بعقود طويلة، حيث لم يبدأ تدوينه رسميًّا إلا في نهاية القرن الأول الهجري في عهد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله(٣)، وألفت فيه بعد ذلك كتب كثيرة، مثل كتب علل الحديث للترمذي والدارقطني والرازي وغيرهم. ولم ينشأ مصطلح العلة إلا بعد مصطلح الإسناد لارتباطها به. ومصطلح الإسناد لم ينشأ إلا عندما طال الأمد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين رواة الحديث فاحتاجوا إلى الإسناد(٤)، واحتاجوا إلى تقويمه بالصحة أو الضعف، واكتشاف العلل الخفية فيه التي تمنع من صحته. قال محمد بن سيرين فيما يرويه الإمام مسلم بن الحجاج: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"(٥).

كما لوحظ في النهج استخدام المصدر الصناعي والاسم المنسوب المؤنث اللذين أشرنا إلى كثرة استخدامهما في القرن الرابع الهجري حيث ورد قوله: "صَدَّقَهُ [أي إبليس] بِهِ أَبْنَاءُ الحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ العَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الكِبرِ

(١) سورة آل عمران، آية: ٧.

(٢) الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: ٣/٥.

(٣) الزهراني، تدوين السنة النبوية: ص٨٥.

(٤) انظر الخطيب، السنة قبل التدوين: ص٢٢٠-٢٢٦.

(٥) مسلم، صحيحه: ص١٥ من المقدمة.

وَالجَاهِلِيَّة"[1]، كما ورد الاسم المنسوب المؤنث في قوله في وصف الطاووس: "وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عسْجَدِيَّةً"[2]،

ويلاحظ في النهج استخدام ألفاظ غريبة وكلمات حوشية لا يناسب استخدامها في الخطب الموجهة للعامة، مثل كلمات: مَألوسَة[3]، وَأيْت[4]، دِسَار[5]، سَكائِك[6]، الوِذَامُ التَّرِبَة[7]، قَاعٌ سَمَلَّق[8]، أَتْأَقَ الحِياضِ[9]، "المُعْتَام"[10]، وكأنه استعراض للثقافة اللغوية والمعجمية كما مر معنا أثناء الحديث عن الخصائص الأسلوبية في القرن الرابع الهجري.

وأخيرا، فقد وردت كلمات عامية مبتذلة لا يمكن أن تصدر عن علي رضي الله عنه، ومن المستغرب وجودها في النهج، مثل قوله: "وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ"[11].

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٩٢/٢، وانظر أيضا ٩٤/٢، و ٩٥/٢.
(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٣٩٤/١.
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٩٢/١، ومألوسة: من الألس وهو الجنون واختلاط العقل.
(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٤٦/١، ومعنى وأيت: أي وعدت، والوأي: الوعد.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٨/١، ودسار: واحد الدُّسُر وهي المسامير أو الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة.
(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٧/١، وسكائك: جمع سُكاكة وهي الهواء الملاقي عنان السماء.
(٧) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٤٥/١، والوِذام التربة: هي القطعة من الكبد أو الكرش تقع في التراب فتنفض.
(٨) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٥٥/١، وقاع سملق: أي صفصف مستوي
(٩) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٦٢/١، وأَتْأَقَ الحِياض: ملأها
(١٠) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٤٢٣/١، والمعتام: المختار.
(١١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٦٣/٢.

ولذلك قال محمد كرد علي: "ومن ذلك نهج البلاغة الذي ألفه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، روى فيه خطبًا وكلامًا يستحيل أن يقوله، ومنه ما لا يصدر عن عربي من أهل الصدر الأول، لأن فيه ألفاظًا من مصطلحات القرن الثاني والثالث"(١).

وإذا انتقلنا إلى الظواهر الأسلوبية والتراكيب اللغوية لنهج البلاغة فسنرى بعض الظواهر و الخصائص التي برزت في النهج وأصبحت نهجًا متبعًا فيه. فمن ذلك كثرة التقسيمات العددية الشائعة في كثير من خطب النهج، وهذه التقسيمات إنما استحدثت بعد نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية وبعد أن دونت العلوم.

فمثلاً يقول:" ....، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ.

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَد جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلاَمَ؟» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ"(٢).

فهذا الكلام اعتمد في مضمونه، وفي سياقه الأسلوبي على سمة التقطيع والإيغال في التجزيء والمزاوجة في الأسلوب، مع استخدام التلوينات العقلية والمصطلحات الفلسفية في بداية الخطبة.

---

(١) كرد علي: الإسلام والحضارة العربية: ص٦٠- ٦١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٥٧/١.

وهذه كلها سمات تخالف السمات الأسلوبية لعصر صدر الإسلام، كما أن هذه السمات لا تلمح في خطب الخلفاء الراشدين، فإن خطب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، بل حتى خطب علي رضي الله عنه الثابتة عنه، كلها مختصرة سلسة الألفاظ، قريبة المعنى، لا إيغال فيها ولا استطراد، ولا يوجد في خطب الخلفاء الراشدين، ما يمكن أن نسميه بالتلوينات العقلية كالتي تبدو جلية في هذا النص.

ولهذا قال أحمد أمين عن التقسيمات العددية في النهج: "... وفيه من تعبيرات إنما حدثت بعد أن نقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية، وبعد أن دُونت العلوم، كقوله: (الاستغفار على ستة معانٍ، والإيمان على أربعة دعائم،..) وكالذي من وصف الدار وتحديدها بحدود أشبه بتحديد الموثقين، كقوله: (تجمع هذه الدار حدودًا أربعة، الحدّ الأول: ينتهي إلى دواعي الآفات)..."[1].

ومن الظواهر الأسلوبية التي برزت في نهج البلاغة تلك المراوحات والمزاوجات الأسلوبية مع استخدام التلوينات العقلية.

فعند النظر إلى قصة خلق آدم عليه السلام المذكورة في خطبة النهج تجد العديد من التلوينات العقلية التي تبعد تمام البعد عن أدب ذلك العصر عصر صدر الإسلام، بل إن شئت الدقة فإنه يمكن القول إن بداية ظهور هذه التلوينات العقلية في القرن الثالث الهجري عند الجاحظ، ثم تطورت وبلغت أوجها وانتشارها في كتابات أدب القرن الرابع الهجري.

يقول: " ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزَنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا تُرْبَةً سَنَّهَا بالمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاَطَهَا بِالبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْها صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاء وَوُصُول، وَأَعْضَاء وَفُصُول: أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْت مَعْدُود، وَأَجَل مَعْلُوم، ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذَا

(١) أمين، فجر الإسلام: ص١٤٩.

أَذْهَان يُجيلُهَا، وَفِكَر يَتَصرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَات يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَة يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، والأَذْوَاقِ والمَشَامِّ، وَالألوَانِ وَالأجْنَاس..." (١).

فأنت إذا تأملت هذا النص وما فيه من هذه التلوينات، ثم ذهبت تستقصي مثله في فترة صدر الإسلام، أو في أدب الخلفاء الراشدين، ما وجدت له مثيلا ولا نظيرًا في تناوله، وألفاظه، وتلويناته.

ثم إنك تلمس في هذا النص، وفي بعض الخطب المشابهة له، إطالة كبيرة وإطنابًا في الكلام، بما يخالف ما كان عليه أدب صدر الإسلام، وما كانت عليه خطب النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء بعدها من خطب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فقد كانت سمتها الإيجاز والتركيز. فالخطبة الغراء مثلًا الواردة في النهج تبلغ ثلاث عشرة صفحة(٢)، وخطبة الأشباح تبلغ إحدى وعشرين صفحة(٣) والخطبة القاصعة تبلغ ستًا وعشرين صفحة(٤)، وكذلك العهد الذي كتبه للأشتر النخعي عندما ولاه مصر فقد جاء في خمس وعشرين صفحة(٥). ومع هذا الطول، فهذه الخطب كما يبدو مقتطفات من الخطب الأصلية؛ حيث يفصل الشريف الرضي بين كل فقرة وأخرى من الخطبة نفسها بقوله: "ومنها"؛ مما يستدعي التساؤل عن هذه القدرات الهائلة التي استطاعت حفظ هذه الخطب الطويلة من أول مرة، ثم تناقلها لفظًا ومعنًى على مدى قرون دون خرم أو نقص أو اختلاف في الرواية، مع أن معظم الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم التي حرص الصحابة رضوان الله عليهم، ومن

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٢٠-٢١.
(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/١٥١-١٦٤.
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/١٨٥-٢٠٦.
(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٨٩-١١٥.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٢٤٠-٢٦٥.

جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم على روايتها، كانت قصيرة، ومتعددة الرواية، وروي كثير منها بالمعنى(١).

وبالإضافة إلى الإطناب في الكلام، فإنك تجد كذلك التعمق في الوصف النثري والتنميق في المعاني بصورة غير مألوفة في عصر صدر الإسلام، بل هي مما تعارف عليه الكتاب في العصر العباسي حيث التنافس في تنميق الكلام، وتشقيق المعاني، والغوص في تفاصيلها، وقد لاحظ ذلك النقاد ودارسو الأدب كأحمد أمين الذي قال عن نهج البلاغة: " هذا إلى ما فيه من معانٍ منمقة لم تعرف إلا في العصر العباسي كما في وصف الطاووس"(٢)، وأكد ذلك أيضاً محمد طاهر درويش حين قال: " وفي نهج البلاغة وصف للطاووس والخفاش والزرع والسحاب وغيرها من خلق الله ...فهذا الكلام المنمق في هذه المعاني، قد جاء في أسلوب أشبه بأساليب العصر العباسي منه بأسلوب عصر علي رضي الله عنه"(٣)، وعند استعراضك لما جاء في وصف الطاووس في نهج البلاغة تجد صحة كلام هؤلاء النقاد ودقة ملحوظاتهم، ففي الطاووس يقول:" وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ، الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وَسَمَا بِهِ مُطِلاًّ عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ . يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ، يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ بِمَلاَقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ أُحِيلُكَ مِنْ ذلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ، لاَ كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفِ إِسْنَادُهُ...فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ

(١) الخطيب، السنة قبل التدوين: ص١٣٠ وما بعدها.

(٢) أمين، فجر الإسلام: ص١٤٩.

(٣) درويش، الخطابة في صدر الإسلام: ١/٣٣٢-٣٣٣.

تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!"[١]. فيلاحظ القارئ لهذه القطعة البديعة في وصف الطاووس أن صاحبها حشد كل طاقاته البلاغية وقدراته اللغوية، ليظهرها في أحسن حلة، وكأنما أنشأها لينافس بها كتابًا آخرين، ويتحداهم بها؛ مما يذكر بروح المنافسة التي كانت تسيطر على كتاب المقامات، وأساطين المناظرات في العصر العباسي من حيث دقة الوصف، وتنميق الكلام، وتشقيق المعاني، والعناية بالتفاصيل، وحشد غريب الألفاظ.

ومن السمات الأسلوبية الشائعة في النهج كثرة الاستعارات بما يخالف الخصائص الأسلوبية في عصر صدر الإسلام، وبما يتوافق مع السمات الأسلوبية في العصر العباسي. فمن ذلك قوله في النهج: "شُقُّوا أَمْواجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ"[٢]، ويعلق ابن أبي الحديد على هذه الاستعارة، ويصفها بأنها من أحسن الاستعارات؛ لتضمنها مناسبة "المستعار والمستعار منه... وذلك لأن الفتن قد تتضاعف وتترادف، فحسن تشبيهها بأمواج البحر المضطربة، ولما كانت السفن الحقيقية تنجي من أمواج البحر، حسن أن يستعار لفظ السفن لما ينجي من الفتن"[٣]. وكذلك شرحه لاستعارة أخرى في الخطبة نفسها: "وضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ"[٤]، حيث قال: "لأن التاج لما كان مما يعظم به قدر الإنسان استعاره لما يتعظم به الإنسان من الافتخار وذكر القديم"[٥]، وفي تعليقة على الاستعارة الثالثة في النص نفسه وهي قوله في النهج: "أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ

(١) انظر النص كاملًا لدى الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٣٩٠-٣٩٤. وفي وصف الخفاش: ١/٣٥٩-٣٦٠، وفي وصف الذرة والنملة: ٢/٦٦، وفي وصف غرائب الجراد: ٢/٦٧-٦٨.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٤٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٣٨.

(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٤٠.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٣٨.

بِجَنَاح"[١]، فقال ابن أبي الحديد: "وكذلك استعارة النهوض بالجناح لمن اعتزل الناس، كأنه لما نفض يديه عنهم صار كالطائر الذي ينهض من الأرض بجناحيه"[٢]. ومن أمثلة الاستعارة الأخرى الواردة في النهج، قوله: "فاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُم، واطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهم"[٣]، وقوله: "فباض [الشيطان] وفرخ في صدورهم"[٤]، وقوله: "أَرْعِدُوا وَأَبْرِقُوا"[٥]، وقوله: "وَأُحَذِّرُكُم الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ. قَدْ تَزَيَّنَتْ بغرورها، وعزت بزينتها"[٦]. والاستعارات في النهج كثيرة لا تكاد تخلو منها خطبة أو رسالة أو قول؛ على أن بعضها أو كثيرًا منها لا تناسب في أسلوبها وتركيبها أسلوب الإمام علي رضي الله عنها مثل قوله: "يُحْرِزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ"[٧]، وقوله: "قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ"[٨].

ومن السمات الأسلوبية استخدام المحسنات البديعية كالسجع والطباق والمقابلة، حيث لا تكاد تخلو خطبة من خطب النهج، أو رسالة من رسائله، أو وصية من وصاياه من هذه المحسنات وبخاصة السجع والطباق والمقابلة، وهذا النمط وإن وجد في صدر الإسلام، وورد في القرآن الكريم، وفي بعض أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أننا نجد هذه المحسنات استخدمت في النهج استخدامًا كثيفًا، وبصورة مبالغ فيها، وبأسلوب أكثر تعقيدًا.

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٤٠.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٣٨.
(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٩١.
(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٤٢.
(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٤٤.
(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٢٦٢.
(٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/٢٥.
(٨) ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ١/١٧٣.

وقد شاع السجع –وكثير منه متكلف– في خطب النهج؛ حتى إن ابن أبي الحديد في شرحه ذكر هذه القضية، وبيّن أنها من القضايا التي أثيرت حول النهج يقول: " واعلم أن قومًا من أرباب علم البيان عابوا السجع، وأدخلوا خطب أمير المؤمنين عليه السلام في جملة ما عابوه؛ لأنه يقصد فيها السجع، وقالوا إن الخطب الخالية من السجع والقرائن والفواصل، هي خطب العرب، وهي المستحسنة الخالية من التكلف، كخطبة النبي صلى الله عليه وسلم وآله في حجة الوداع"(١).

ومن أمثلة السجع في نهج البلاغة قوله: " ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الأَجْوَاءِ، وَشَقَّ الأَرْجَاءِ، وَسَكَائِكَ الهَوَاءِ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِمًا تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ العَاصِفَةِ، وَالزَّعْزَعِ القَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ. الهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ، وَالماءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ" (٢).

وأيضًا قوله:" أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ، وَالخَابِطِ فِي الدِّيماسِ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ، نَازِحَةِ الأَعْلَامِ، تَقْصُرُ دُونَهَا الأَنُوقُ، وَيُحَاذَى بِهَا العَيُّوقُ"(٣).

ولذا قال أحمد أمين: "ونسبوا إليه ما في نهج البلاغة، وهو يشتمل على كثير من الخطب والأدعية، والكتب والمواعظ والحكم، وقد شك النقاد في مجموعها قديمًا وحديثًا، كالصفدي، واستوجب هذا الشك أمور لما في بعضه من سجع منمق، وصناعة لفظية لا تعرف لذلك العصر"(٤).

---

(١) ابن أبي الحديد، المصدر نفسه: ١/١٢٦.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/١٧–١٨.

(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٢٨٦.

(٤) أمين، فجر الإسلام: ص١٤٨.

ومن أمثلة الطباق قوله: "ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والوُضُوحَ بِالبُهْمَةِ، وَالجُمُودَ بِالبَلَلِ، وَالحَرُورِ بِالصَّرد"(١)، وقوله: "مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحًا بِلا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحًا بِلا أَشْبَاحٍ...وَأَيْقَاظًا نُوَّمًا، وَشُهُودًا غُيَّبًا، وَنَاظِرَةً عُمْيًا، وَسَامِعَةً صُمًّا، وَنَاطِقَةً بُكْمًا"(٢).

وأما أمثلة المقابلة فكثيرة أيضًا كقوله: "وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الخَفَافِيشِ التِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ البَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ القَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ" (٣)،وكقوله:" وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُم بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ قَدْ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُم"(٤)، وكقوله: "أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعِ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُم"(٥)، وكقوله:" وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ، بِفَوقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ، وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَأَقْحَمَتْهُ العُيُونُ، بِدونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ"(٦). فالتأنق في هذه الأمثلة، والتجويد في حبك صياغة الجمل لتكون هذه المقابلات اللطيفة، بل والإطالة في المقابلة بحيث أصبحت عددًا من الجمل في مقابل

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢/٦٩.

(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٢٤٣. ولمزيد من أمثلة الطباق انظر: ١/٢٤٧، ٢/٤٠، ٢/١١٨.

(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٣٥٩.

(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/ ٤٣٨.

(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٤١١

(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/ ٢٥، ولمزيد من أمثلة المقابلة انظر: ١/٣٠٩-٣١٠، ١/٣٢٨، ١/٣٢٩، ١/٣٣٤، ١/٣٣٥، ١/٣٦١، ١/٣٨٦، ١/ ٤٠٠، ٢/ ٣٥، ٢/٦٢، ٢/٦٩، ٢/٧٤، ٢/٧٧، ٢/١٢٦، ٢/١٣٢، ٢/١٤٦، ٢/١٥٥.

أخرى، بدلًا من جملة واحدة في مقابل جملة أخرى. كل هذا يوحي بأن هناك نفَسًا عَبَّاسيًا في مثل هذه النصوص.

ومن السمات الأسلوبية استخدام لزوم ما لا يلزم وهو نمط بديعي متأخر عن عصر الإمام علي رضي الله عنه.

فنجده يستخدم في الخطب لزوم ما لا يلزم، وهو يعد من فنون البديع عند المتأخرين عن علي رضي الله عنه، "وحدّ اللزوم أن يلتزم الشاعر في شعره قبل رويّ البيت من الشعر حرفًا فصاعدًا على قدر قوته، وبحسب طاقته، مشروطًا بعدم الكلفة"(١)، ومنه من يلتزم حركة مخصوصة قبل حرف الرويّ أيضًا(٢)، وهو في رأي ابن الأثير "من أشق هذه الصناعة مذهبًا وأبعدها مسلكًا"(٣). ويقع لزوم ما لا يلزم في النثر كما هو في الشعر، وهو من فنون البديع المتكلفة، والتي لم يكن لها أيُّ حضور في هذا العصر، وقد لاحظ ابن أبي الحديد وجود هذا النوع من البديع في نهج البلاغة، وقدم له شرحًا موجزًا في كتابه، ومثَّلَ له بما ورد في النهج: وزِن، وخَزِن بلزوم الزاي(٤) في قول علي رضي الله عنه: "فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ، وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ"(٥). ومن أمثلة لزوم مالا يلزم أيضًا ما جاء على لسانه رضي الله عنه: "أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ"(٦)، وقوله :"فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ وَدَارِ عِبْرَةٍ"(٧)، وقوله: "لَا قُوَّةٌ

(١) ابن المعتز، البديع: ص ٧٤، وانظر: البغدادي، ابن حيدر، قانون البلاغة: ص ١٣٣.

(٢) انظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القــرآن: ص ٥١٧.

(٣) العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣٩٧/٢.

(٤) انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣٣/١.

(٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢٦/١.

(٦) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٥١/١.

(٧) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١٥٢/١.

حَاجِزَةٌ وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ"[1]، وقوله: "فَإِنَّ الْمَوتَ...قَدْ أَعْلَقَتْكُم حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُم غَوَائِلُهُ، ... فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُم دَوَاجِي ظُلَلِه، وَاحْتِدَامُ عِلَلِه،...فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُم بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُم، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُم...وَبَعَثَ وُرَّاثَكُم، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُم" [2].

وقضية لزوم ما لا يلزم ظهرت كلون بديعي متكلف في فترات بعيدة عن الإمام علي رضي الله عنه، وما كان له أن يتكلفها في كلامه وخطبه.

ومن السمات الأسلوبية التناقض البين في خطب النهج، بل أحيانًا في الخطبة الواحدة وفي الأسلوب الواحد.

فمثلًا يروى عنه في الخطبة الشقشقية قوله: " أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلَّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَا...فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا، فَصَبَرْتُ وفِي العَيْنِ قَذًى، وَفِي الحَلْقِ شَجًى، أَرَى إِرْثِي نَهْبًا"[3].

ففي هذا النص ما فيه من التناقض البين في استخدامات الأسلوب، فكيف يسدل عنها ثوبًا، ويطوي عنها كشحًا، ثم يصبر وفي العين قذى وفي الحلق شجا، وهذه الغصة وهذا الألم، واضحان في نهاية الفقرة. فهو إذ فعل ما فعل في الأول فقد تركها وصرمها، ولا حاجة له بها فكيف يبكي عليها ويرثيها. وقد لاحظ ابن أبي الحديد هذا التناقض الواضح، ولكنه طفق يلتمس مخرجًا لذلك؛ فقال: " واعلم أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا ...لأنه لا يجوز أن يسدل دونها ثوبا، ويطوي عنها كشحا، ثم يطفق يرتئي بين أن ينابذهم أو يصبر؛ ألا ترى

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/١٦٢-١٦٣.

(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٥٦-٥٧.

(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٢٩-٣٠.

أنه إذا أسدل دونها ثوبًا، وطوى عنها كشحًا فقد تركها وصرمها، ومن يترك ويصرم لا يرتئي في المنابذة "[١].

كما أن هناك تناقضًا في طلب الخلافة والزهد فيها، والانصراف عنها؛ فكما رأينا في النص السابق من حرصه عليها وأحقيته بها دون غيره، فإنه يقول في النهج –كما ينسب إليه رضي الله عنه– مخاطبًا طلحة والزبير رضي الله عنهما نافيًا هذه الرغبة: "وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِيْ الوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا"[٢]، وتناقض في مدح الصحابة وذمهم واحتقارهم، ففي مدح الصحابة رضي الله عنهم يقول فيما يروى عنه: "لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ؛ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثًا غُبْرًا، قَدْ بَاتُوا سُجَّدًا وَقِيَامًا، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ المِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ، إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبِلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ العَاصِفِ، خَوْفًا مِن العِقَابِ وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ"[٣]، وفي ذم بعض الصحابة يقول: "وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفًا، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا تَرَكُوهُ، وَدَمًا سَفَكُوهُ"[٤]،كما يقول مستحقرًا أصحاب الشورى الستة رضي الله عنهم، وهم خلاصة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:" حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ [أي عمر بن الخطاب رضي الله عنه]، جَعَلَهَا فِي سِتَّةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَا لِلَّهِ وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنَ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ!"[٥]. وتناقض في النهي عن السب والوقوع فيه،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٥٥.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٢/٥، وانظر أيضًا: ١/٢٠٧.

(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٢١٨-٢١٩.

(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٣١٥.

(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٣٢.

يقول فيما يروى عنه رضي الله عنه:" إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ..." [١]، ولكن يرِدُ السب المقذع على لسانه في إحدى الخطب المنسوبة إليه يخاطب الأشعث ابن قيس: "مَا يُدْرِيك مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي؛ عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَةُ اللَاعِنِينَ. حَائِكٌ ابْنُ حَائِكٍ، مُنَافِقٌ ابْنُ كَافِرٍ...إلخ"[٢]، وتناقض في رفض المشورة، وقبولها والحث عليها؛ فمما روي له في رفضه المشورة قوله:" فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ [أي الخلافة] نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِيُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيَ غَيْرِكُمَا"[٣]. وفي موقف مناقض يروى عنه قوله:" فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ؛ فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي"[٤]، وتناقض في الحث على موالاة القبيلة، وسب قبيلته قريش يقول:" اللَهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَأُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي"[٥]، بينما في خطبة أخرى يحث على التمسك بالقبيلة والقرابة حيث يقول: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ- وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ- عَنْ عَشِيرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ...وَمِنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تَقْبِضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتَقْبِضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ، وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ، يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ المَوَدَّةَ"[٦]. وتناقض في مدح أهل الكوفة وذمهم، يقول في مدح أهل الكوفة: "إِلَى أَهْلِ الكُوفَةِ، جَبْهَةِ الأَنْصَارِ، وَسَنَامِ العَرَبِ"[٧]،

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٧.

(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ١/٦٠، وانظر مثالا آخر: ١/٣١٣.

(٣) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٥-٦.

(٤) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٢٧-٢٨.

(٥) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢/٥، وانظر أيضًا ١/٩١ و ٢/٢٠٩-٢١٠.

(٦) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٦٦.

(٧) الشريف الرضي، المصدر السابق: ٢/١٢٧.

ويقول في ذمهم: "يَا أَهْلَ الكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو آذَانٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لَا أَحْرَارٌ صُدُقٌ عِنْدَ اللِقَاءِ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ البَلَاءِ"(١)، وتدل على هذه التناقضات البينة على اختلاف موارد النهج، وتعدد مصادر تلقي الشريف الرضي لها، وعدم تدقيقه عند انتخابها واختيارها.

وعلى الجانب الآخر، فإنه بتأمل بعض الخطب الأخرى الواردة في نهج البلاغة، نجد أنها تنساب في سلاسة لفظية متماشية مع أدب عصر الخلفاء الراشدين مما يرجح نسبتها إلى الإمام علي رضي الله عنه، وسلاسة الألفاظ من سمات ذلك العصر: " فقد كانت ألفاظ الخطابة صافية لا خشونة فيها، ولا حوشي مع الجزالة والقوة، وذلك لما اكتسبته من القرآن والسنة النبوية الشريفة"(٢)، ومن ذلك قوله رضي الله عنه: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم اثْنَتَانِ: اتِّبَاعُ الهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ. أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ، اصْطَبَّهَا صَابُّهَا، أَلَا وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهَا بَنُون، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ"(٣).

كما أن هناك خطبًا وأقوالاً رويت في النهج كان قد سبقه في روايتها علماء ثقات أمثال المبرد(٤)وغيره، فهذه خطب مقبولة، وتنطبق عليها خصائص النثر

---

(١) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٢١٧/١.

(٢) أبو زهرة، الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب: ٣٠٦.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة : ١٠٥/١، وانظر أمثلة أخرى ١٧٠/١-١٧٢، ٢٠٧/١، ١/ ٢٣٢، ١/ ٢٥٥، ٢٩١/١، ٤٠٢/١، ٧/٢، ٥٤/٢، ١٣٤/٢.

(٤) انظر على سبيل المثال خطبته رضي الله عنه حين انتهى إليه أن خيلًا لمعاوية رضي الله عنه وردت الأنبار فقتلوا عامله حسان بن حسان لدى المبرد، الكامل ٦٧/١-٧٢،

في عصر صدر الإسلام في الغالب إلا ما ندر منها، ويمكن تصحيح نسبتها إلى علي رضي الله عنه ما لم تتبين فيها خصائص العصر العباسي، على أن معظمها أقوال قصيرة لا تتبين فيها خصائص عصر بعينه.

وقارنها بما لدى الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١/٧٥-٧٩ مع اختلاف في بعض الألفاظ زيادة ونقصًا.

الخاتمة

وبعد، فقد يأتي التساؤل في الختام، بماذا خرج هذا البحث؟ ولمن ينسب محتوى نهج البلاغة من خطب ومراسلات ووصايا وحكم؟ هل يمكن نسبته لعلي رضي الله عنه، وبالتالي ينتسب لعصر صدر الإسلام؟ أم أن مُنشئه هو الشريف الرضي نفسه فيكون منسوبًا للقرن الرابع الهجري؟ أم أن الشريف الرضي إنما قام بانتخاب هذا المحتوى، واختياره من بين نصوص كثيرة قيلت ونسبت للإمام علي رضي الله عنه على مدى أربعة قرون؟

والإجابة عن هذه التساؤلات – من حيث العموم– تتضح بأنه باعتماد المعايير والخصائص الأسلوبية التي ناقشها هذا البحث– فإن الباحث يستنتج بأن ما يصح أن ينسب إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخطب هو ما تتناسب خصائصه الأسلوبية مع خصائص عصر صدر الإسلام، وما لا تصح نسبته إليه من الخطب هو ما تتناسب خصائصه الأسلوبية مع خصائص القرن الرابع الهجري مما أضافه الشريف الرضي، أو اختاره مما وضعه غيره خلال السنوات والقرون التي تفصل بينه وبين الإمام علي رضي الله عنه.

وعلى هذا، فإنه يمكن القول إن كثيرًا مما ورد في النهج من خطب مروية، ورسائل مكتوبة ليست لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ بل هي صناعة عباسية بامتياز، ولا يعلم على وجه التحديد من كتبها، ولا متى كتبت، لكنه من المؤكد أنها كتبت بعد القرن الثاني الهجري، فقد يكون الشريف الرضي هو الذي كتبها كلها أو بعضها، أو أنه اكتفى بجمعها والاختيار منها. ونخص منها الكلمات والخطب ذوات الأرقام: في القسم الأول باب المختار من الخطب: ١، ٢، ٣ وهي الخطبة المسماة بالشقشقية، ٥، ٦، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٣٠، ٣٢، ٤٩، ٥٦، ٥٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٨٢ وهي الخطبة المسماة بالغراء، ٨٤، ٨٦، ٨٩، ٩٠ وهي المعروفة بخطبة الأشباح، ٩٢، ٩٣، ١٠٠،

١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨ وهي المسماة بالقاصعة، ٢٤٣.

وفي القسم الثاني: باب الكتب والرسائل والعهود والوصايا: ٣، ٩، ١٠، ١٧، ٢٥، ٢٧، ٢٨،٣١، ٤١، ٤٥، ٥٣.

وأما الحكم المأثورة والأقوال القصيرة في القسم الثالث، فإنه لا يمكن القطع بصحة نسبتها إلى علي رضي الله عنه. كما لا يمكن القطع بنفي صحة نسبتها إليه أيضًا؛ نظرًا لقصرها، وعدم تبين الأثر العباسي في كثير منها، فأما ما تبين الأثر العباسي فيه –وهو قليل– حكمنا بعدم صحة نسبته إلى علي رضي الله عنه، كالقول المنسوب إليه رضي الله عنه عندما "سُئِلَ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالعَدْلِ فَقَالَ: التَّوْحِيدُ أَلَّا تَتَوَهَّمَهُ، وَالعَدْلُ أَلَّا تَتَهِمَهُ"(١). فهذه العبارة تجمع بين كلمتي التوحيد والعدل، وهما ما يسمي به المعتزلة أنفسهم بأنهم أهل العدل والتوحيد، بالإضافة إلى ما فيها من مصطلح التوهم وهو أحد مصطلحات أهل الكلام والفلاسفة، فهذه العبارة وأمثالها لا يمكن نسبتها إلى علي رضي الله عنه قطعًا.

وكالقول المنسوب إليه:" إن لله ملكًا ينادي في كل يوم: لدوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب"(٢)، فإنه واضح أنه مأخوذ من مطلع إحدى قصائد أبي العتاهية، وهو قوله:(٣)

لِدُوا للموتِ وابنُوا لِلخَرابِ فكُلّكُمُ يَصِيرُ إلى تَبابِ

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٤١٣/٢.

(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه: ٣٣٧/٢.

(٣) أبو العتاهية، ديوانه: ص٤٦.

كما أن بعض هذه الأقوال القصيرة مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم في كتب الحديث فإما أنها استشهاد من علي رضي الله عنه بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، أو أن أحد الرواة نسبها لعلي رضي الله عنه جهلًا أو عمدًا، ومن ذلك قوله: "لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ"(١)، فهذا القول رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن علي نفسه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الله عز وجل"(٢)، وقوله رضي الله عنه فيما ينسب إليه: "إِنَّ اللهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُم فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُم حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَنَهَاكُم عَنْ أَشْيَاء فَلَا تَنْتَهِكُوهُا، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ – وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَانًا – فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا"(٣)، وقد روي هذا القول باختلاف بسيط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَات فَلَا تَنْتَهِكُوهُا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا"(٤). رواه الدارقطني وغيره وهو حديث حسن.

وقوله رضي الله عنه: " مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسَبُهُ"(٥)، فهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن حديث طويل مع اختلاف طفيف في الرواية: "وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ "(٦).

ولعل الدراسات النقدية المستقبلية تكشف أسرار كتاب نهج البلاغة، وتحدد مؤلفه الحقيقي بصورة أكثر دقة، وأقرب صوابًا، والله أعلم.

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣٤٧/٢.

(٢) ابن حنبل، مسنده: ٣٣٣/٢، ورقم الحديث ١٠٩٥.

(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣٣٠/٢.

(٤) الدارقطني، سننه: ٤١٩/٢ ورقم الحديث ٤٣١٦.

(٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ٣٣٠/٢.

(٦) مسلم، صحيحه: ٢٠٧٤ ورقم الحديث ٢٦٩٩.

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن ظافر المصري، (ت٦٥٤)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

٢- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت٣٥٦)، مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، منشورات الشريف الرضي، دط، دت.

٣- أمين، أحمد، (١٣٧٣هـ)، فجر الإسلام، ط١٠، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.

٤- البحراني، كمال الدين بن ميثم ، (ت٦٧٩هـ) ، شرح نهج البلاغة، ط١، بيروت، دار الثقلين، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٥- البحراني، يوسف، (ت١١٨٦هـ) ، الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة، تحقيق محمد تقي الإيرواني، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٦- البغدادي، أبو الطاهر محمد بن حيدر، (ت٥١٧هـ)، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تحقيق محسن غيّاض عجيل، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

٧- البغدادي، الخطيب أبو بكر، (ت٤٦٣هـ)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، الرياض، مكتبة المعارف، د.ت شرف أصحاب الحديث، تحقيق د. محمد سعيد خطي أوغلي، ط١، أنقرة، دار إحياء السنة النبوية.

٨- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى ،(ت٢٧٩هـ)، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٩- التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، (ت٤٠٠هـ)، أخلاق الوزيرين، تحقيق محمد تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. الإمتاع والمؤانسة، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ.

١٠- ابن تيميّة، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ،(ت٧٢٨هـ)، منهاج السنة النبوية في تقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق محمد رشاد سالم، ط١، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

١١- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥ هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٧، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.رسائل الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، لبنان، دار الجيل، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٢- ابن جعفر، قدامة بن زياد، (ت٣٣٧هـ) ، جواهر الألفاظ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٣- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله ، (ت٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، بيروت، دار الجيل، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٤- حسن، محمد عبد الغني، (معاصر)، الخطب والمواعظ، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

١٥- حسين، طه، (ت ١٣٩٣هـ)، من تاريخ الأدب العربي، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩١م. من حديث الشعر والنثر، ط١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٣م.

١٦- الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي ، (ت ٤٥٣هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، شرحه زكي مبارك، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط٤، بيروت، دار الجيل، د.ت.

١٧- ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد، (ت ٥٦٢ هـ)، التذكرة الحمدونية، ط١، بيروت، دار صادر، ١٤١٧هـ، د.ت.

١٨- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن محمد ، (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عبّاس، ط١،بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٩- حميد الله، محمد ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط٦، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٠- ابن حنبل، الإمام أحمد الشيباني، (ت ٢٤١هـ) ، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢١- الخطيب، محمد عجاج ، معاصر، السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨ ه/ ١٩٨٨م.

٢٢- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، (ت١٠٦٩هـ)، شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل، قدم له وصححه الدكتور محمد كشاش، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٢٣- ابن خلدون، (ت ٨٠٨ هـ) ، (مقدمة ابن خلدون) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق : خليل شحادة، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م .

٢٤- ابن خلكان، (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عبّاس، ط١، بيروت، دار صادر، ١٩٩٤م.

٢٥- خليل، حلمي، (معاصر)، المولد في العربية... دراسة في نمو اللغة العربية وتطورها بعد الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢٦- الخوارزمي، أبو بكر، (ت٣٨٣هـ)، رسائل الخوارزمي، ط١، استانبول، مطبعة الجوائب، ١٢٩٧هـ.

٢٧- الدارقطني، علي بن عمر، (ت ٣٨٥هـ)، سنن الدارقطني، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٢٨- درويش، محمد طاهر، (معاصر)، الخطابة في صدر الإسلام، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥.

٢٩- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت ٧٤٨ هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق محمد علي البجاوي، ط١، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

٣٠- الرشود، راشد مبارك عبد الله، (معاصر)، أدب الوفادة على معاوية بن أبي سفيان، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٢م.

٣١- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي، (٧٩٤ه)، البحر المحيط في أصول الفقه، تحرير د. عمر بن سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٣٢- الزهراني، محمد بن مطر، (معاصر)، تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٣٣- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي، (ت٤٠٦هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، حققه وقدم له ووضع فهارسه: محمد عبد الغني حسن، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٥م.

٣٤- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، شرح العلامة محمد الرضا آل كاشف الغطاء، ط١، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٦هـ/١٩٨١م.

٣٥- ديوان الشريف الرضي، صنعة أبي حكيم الخبري، تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، ط١، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام، ١٩٧٧م.

٣٦- المجازات النبوية، تحقيق طه محمد الزيني، القاهرة، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع د. ت .

٣٧- نهج البلاغة (وهو ما جمعه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣٨- أبو زهرة، محمد، (ت١٣٩٤هـ)، الخطابة، أصولها . تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي.

٣٩- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد ، (ت٩٠٢هـ)، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، تحقيق علي حسن علي، ط١، القاهرة، مكتبة السنة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٤٠- الشايب، أحمد، (ت١٣٩٦هـ)، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، القاهرة، ط١٢، مكتبة النهضة المصرية، ٢٠٠٣م.

٤١- الصابي، أبو إسحاق إبراهيم بن هلال، (ت ٣٨٤هـ)، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، جمع وتحقيق الأمير شكيب أرسلان، بيروت، دار النهضة الحديثة، دت.

٤٢- ضيف، شوقي، (ت١٤٢٦هـ)، الفنّ ومذاهبه في النثر العربي، ط١٣، القاهرة، دار المعارف.

٤٣- الطرابلسي، محمد الهادي، (معاصر)، معارضات شوقي بمنهجية الأسلوبية المقارنة، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الأول، أكتوبر/نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٢م، ص: ٨٥-٩٦.

٤٤- ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد، (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٤٥- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد، (ت ٢١٠هـ)، ديوانه، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. أبو العدوس، يوسف، (معاصر)، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة، عمّان، ط١، ١٤٢٧ه/٢٠٠٧م. البلاغة والأسلوبية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٤٦- العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر، (ت ٨٥٢ هـ)، لسان الميزان، تحقيق دائرة المعارف النظامية، الهند، بيروت، مؤسسة الأعلمي للطباعة، د.ت.

٤٧- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، (ت ٣٩٥هـ)، الصناعتين، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

٤٨- العلوي، يحيى بن حمزة، (٧٤٥هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ.

٤٩- ابن العماد الحنبلي، (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه محمود الأرناؤوط، وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، ط١، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٥٠- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت ٢٧٦ هـ)، عيون الأخبار، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٦م.

٥١- كرد علي، محمد، (ت١٣٧٢هـ)، الإسلام والحضارة العربية، ط٣، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م.

٥٢- مبارك، زكي، (ت١٣٧١هـ)، عبقرية الشريف الرضي، ط٢، القاهرة، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٢م.

٥٣- الموازنة بين الشعراء، ط٢، القاهرة، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٢م.

٥٤- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ط٢، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٦هـ.

٥٥- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد ، (ت ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي، من إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٥٦- محسب، محيي الدين، (معاصر)، الأسلوبيات الأدبية، من إصدارات كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، الرياض، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٥٧- المسدّي، عبد السلام ،(معاصر)، الأسلوب والأسلوبية نحو بديل ألسني في نقد الأدب، ط٣، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٧٧م.
٥٨- مسلم، أبو الحسن النيسابوري مسلم بن الحجاج، (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م .
٥٩- مصلوح، سعد، (معاصر)، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ط٢، القاهرة، عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٦٠- ابن المعتز، عبد الله أبو العباس،(ت٢٩٦هـ) ، البديع، اعتنى بنشره، وتعليق المقدمة والفهارس: إغناطيوس كرتشقوفسكي، ط٣، بيروت، دار المسيرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٦١- المعتق، عواد بن عبدالله،(معاصر)، المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٦٢- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان، (ت٤٤٩هـ)، الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، ضبطه وفسر غريبه، ونشره، محمود حسن زناتي، ط١، القاهرة، مطبعة حجازي، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.
٦٣- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي، (ت ٧١١ هـ)، لسان العرب، ط٢، بيروت، دار صادر، ٢٠٠٠م .
٦٤- النص، إحسان، (معاصر)، الخطابة العربية في عصرها الذهبي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣. الهمذاني، أبو الفضل بديع الزمان أحمد ابن الحسين بن يحي، (ت٣٩٨هـ)، رسائل الهمذاني، ط١، استانبول، مطبعة الجوائب، ١٢٩٨هـ. مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم وشرح الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٣٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٦٥- اليافعي، (ت٧٦٨هـ)، مرآة الجنان، وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

* * *